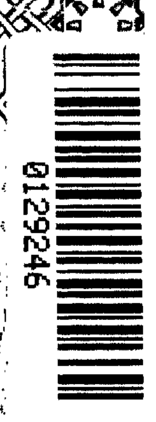
الرسالة التبوكية

الإمام ابن قيم الجوزية

تحقيق
حماد سلامة

راجعه
الدكتور محمد عويضة

مكتبة المنار
الأردن - الزرقاء



الرسالة التبوكية

الإمام ابن قيم الجوزية

الطبعة الأولى

١٤١٠هـ - ١٩٨٩م



للطباعة والنشر والتوزيع

الأردن - الزرقاء - شارع الفاروق ص . ب ٨٤٢

هاتف ٩٨٣٦٥٩ - فاكس ٩٩٥٦٥٠ تلكس ٤١٤٢٠ - تجارة جو

الرسالة التبوكية

تأليف

الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية

(٦٩١ - ٧٥١هـ)

تحقيق

حماد سلامة

مكتبة المنار

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنَّ الحمدَ لله نحمده، ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئاتِ أعمالنا، من يهده الله فلا مُضِلَّ له ومن يُضْلِل فلا هاديَ له أما بعد:

فهـذه ـ أخي القـارىء ـ «الـرسـالة التبوكية» للإمام العالم الفذ ابن قيم الجـوزيـة صاحب المؤلفـات المشهورة، وهي رسالة صغيرة الحجم عظيمة النفع؛ لما احتوت من موضوعات شيقة ومباحث نفيسة تفيد المسلم في دنياه وآخرته، فقد اشتملت على تفسير لعدد من الآيات القرآنية الكريمة، ومن خلال هذا التفسير أوضح لنا ابن القيم رحمه الله معاني البر والتقوى والإثم والعدوان والعلم النافع، وبيّن الهجرة إلى الله ورسوله وأقسامها، ووجوب محبة الرسول ﷺ وطاعة أولي الأمر إذا اندرجت تحت طاعة الله ورسوله، كما تناول ابن القيم في الرسالة موضوع السعادة وكمالها، واتباع السعداء واتباع الأشقياء والإحسان في التبعية، ومسيرة الإنسان إلى ربه وزاده ومركبه في هذه المسيرة، موضحاً أهمية التدبر والتفكر في آلاء الله سبحانه وتعالى وغير ذلك من الموضوعات القَيِّمة.

ولأهمية هذه الرسالة طُبعت أكثر من مرة، فقد طُبعت بهذا الاسم لأول مرة سنة ١٣٤٧هـ بالمطبعة السلفيـة بمصر بتصحيح عبد الظاهر أبو السمح، وطُبعت للمرة الثانية باسم «تحفة الأحباب في تفسير قوله تعالى ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إنَّ الله شديدُ العقاب﴾»

سنة ١٣٧٦هـ بمطبعة المدني بمصر[1]، كما طُبعت سنة ١٤٠٥هـ بمكتبة المنارو دار الهجرة، وطبعت سنة ١٤٠٦هـ بمطبعة المدني وقدم لها الدكتور محمد جميل غازي.

وقد اعتمدت في تحقيق الرسالة على الطبعتين الأخيرتين وكان عملي فيهما كما يلي:

أولاً: المقدمة وبيَّنت فيها أهمية الرسالة وأوجزت ما اشتملت عليه من موضوعات وأشرت إلى طبعاتها السابقة.

ثانياً: الترجمة لابن القيم ترجمة تتناسب مع حجم الرسالة.

ثالثاً: تخريج الآيات القرآنية.

رابعاً: تخريج الأحاديث النبوية الشريفة.

خامساً: الترجمة للأعلام الوارد ذكرهم وعزو الأشعار إلى قائليها ما أمكن ذلك.

سادساً: تفسير الكلمات الغريبة وتصويب ما ورد من تصحيفات والتعليق على النص بما يجلو المعنى.

سابعاً: وضع فهارس للآيات والأحاديث والمصادر والمراجع والموضوعات.

وأرجو أن نكون قد وفِّقنا في خدمة هذه الرسالة بما ينفع والله ولي التوفيق.

حماد سلامة

---

(١) انظر كتاب ابن قيم الجوزية حياته وآثاره لبكر بن عبد الله أبو زيد ص١٥٥-١٥٦.

ترجمة المؤلف(١)

اسمه ونسبه:

هو أبو عبد الله مُحمد بنُ أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حَرِيز الزُّرْعي(٢) ثم الدِّمشْقي الحنبلي الشهير بابن قَيِّم الجوزية.

سبب اشتهاره بابن قيم الجوزية:

اشتهر هذا الإمام بينَ أهلِ العلمِ بابن قيِّمِ الجوزية، وسبب هذا أنَّ والده كان قَيِّماً على المدرسة الجوزية بدمشق مُدةً من الزمن فقيل له: «قَيِّم الجوزية» واشتهرت ذُرِّيَّتُهُ وحَفَدَتُهُم من بعدِ ذَلِكَ، فصار الواحدُ منهم يُدعى بابن قيم الجوزية.

---

(١) انظر ترجمة ابن القيم في: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٤/٢١، البداية والنهاية لابن كثير ١٤/٢٤٦، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ١/٦٢، شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ٦/١٦٨، ذيل العبر في خبر من عبر للحسيني ٤/١٥٥، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني ٢/١٤٣، مختصر طبقات الحنابلة لجميل الشطي ص٦٩، الأعلام للزركلي ٦/٥٦، معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٩/١٠٦، وهدية العارفين لاسماعيل البغدادي ٦/١٥٨، وكشف الظنون ١/٦٢٣ وأماكن أخرى، وكتاب ابن قيم الجوزية حياته وآثاره لبكر بن عبد الله أبو زيد، وكتاب ابن قيم الجوزية لمحمد مسلم الغنيمي، وكتاب رجال الفكر والدعوة في الإسلام للندوي، والذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ٢/٤٤٧.

(٢) نسبة إلى (زُرع) قرية من عمل حوران بدمشق. (انظر معجم البلدان لياقوت ٣/١٣٥).

مولده ونشأته :

وُلِدَ ابنُ قيم الجوزية في سابعِ صفر سنة إحدى وتسعين وستمائة للهجرة من أبوين صالحين، ونَشأ في بيتِ عِلْم ودين وورع وصلاح، إذ كان أبوه ـ كما ذكرنا ـ قيّماً للمدرسة الجوزية بدمشق.

طلبه العلم وشيوخه :

قبل أن يبلغ ابن القيم ـ رحمه الله ـ سِنَّ الرشد ـ وبالتحديد في السابعة من عمره ـ انبرى لطلب العلم، وكان في طلبه متفانياً، حُرًّاً مختاراً، يتلقى كل علم عن نوابغ المُتَخَصِّصين فيه.

فقد أَخَذ الحديثَ عنْ الشهابِ النابلسي العابر، والقاضي تقي الدين سليمان، وأبي بكر بن عبد الدائم، وإسماعيل بن مكتوم، وفاطمة بنت جوهر، ومن في طبقتهم، وقَرَأَ العربيَّةَ على ابن أبي الفتح، والمجد التونسي، وقرأ الفقه على المجد الحراني وابن تيمية، وقرأ الأصول على الصفّي الهندي، وابن تيمية شيخه الذي نهج نهجه وأخذ منه معظم علمه ولازمه منذ أن قدم من الديار المصرية سنة ٧١٢هـ إلى أن مات سنة ٧٢٨هـ. ولما كان والدُ ابن القيم ـ أبو بكر ـ له اليد الطولى في الحساب والفرائض أخذهما عنه، ولما تمم تحصيله على كبار شيوخ عصره مباشرة، وأصبحت لديه مَلَكَة عِلْمية يقدر معها على الفهم الصحيح، وتمييز وترجيح الأصح أخذ يدرس على من سلف من أهل علم كل فن بواسطة المطالعة والاطلاع على ما تبقى من كتب السلف ـ بعد نكبة هولاكو العلمية ـ فقد كانَ ـ رحمه الله ـ دؤوباً على المطالعة، صبوراً، مُغْرَماً بجمع الكتب، شديد الحفظ لما يقرأ لا يكاد ينسى معنى ما قرأ وإن اختلف اللفظ بعض الاختلاف.

تلاميذه :

من تلاميذه الذين أخذوا العلم عنه : الحافظ زين الدين عبد الرحمن بن

رجب الحنبلي المتوفى سنة ٧٩٥هـ صاحب طبقات الحنابلة، وشمس الدين محمد بن عبد القادر النابلسي المتوفى سنة ٧٩٧هـ، له تصانيف منها مختصر طبقات الحنابلة، وابن عبد الهادي المقدسي الصالحي الحنبلي الحافظ الناقد ذكر له ابن رجب ما يزيد عن سبعين مصنفاً يبلغ بعضها مائة مجلد توفي سنة ٧٤٤هـ وغيرهم، ومن أولاده الذين أخذوا عنه: الحافظ إبراهيم المتوفى سنة ٧٦٧هـ، وعبد الله الذي تولى التدريس بالصدرية بعد وفاة والده، كانت ولادته سنة ٧٢٣هـ وتوفي سنة ٧٥٦هـ.

أقوال العلماء فيه وثناؤهم عليه:

لقد حظي ابن القيم ـ وهو جدير بثناءِ العُلماء والحُفَّاظ فقد قال ابن كثير عنه في البداية والنهاية: «كان حَسَنَ القراءة والخُلُق، كَثير التودُّد، لا يحسدُ أحداً ولا يؤذيه، ولا يستعيبه، ولا يحقد على أحد، ولا أعرف في هذا العالم في زمـاننا أكثر عبادةً منه، وكانت له طريقةٌ في الصلاة يُطيلها جداً ويمد ركوعها وسجودها. . . وله من التصانيف الكبار والصغار شيء كثير، وكتبه بخطه الحسن شيئاً كثيراً، واقتنى من الكتب ما لا يتهيأ لغيره تحصيل عُشْرِهِ من كتب السلف والخلف، وبالجملة كان قليل النضير في مجموعه وأموره وأحواله والغالب عليه الخير والأخلاق الصالحة»(١).

وقال الذهبي في العبر: «الإمام العلامة ذو الفنون. . . تفقه بشيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية، وكان من عيون أصحابه، وأفتى ودَرَّس، وناظر وصَنَّفَ وأفاد. . .»(٢).

وقال عنه ابن حجر في الدرر الكامنة: «كان جريءَ الجنانِ، واسعَ العلمِ، عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف، وغَلَبَ عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١٤ ص٢٤٦.

(٢) العبر في خبر من عبر للذهبي، ج٤ ص١٥٥.

عن شيء من أقواله بل ينتصر له في جميع ذلك[1] وهو الذي هَذَّبَ كُتُبَهُ ونَشَرَ عِلْمَهُ وكان له حظ عند الأمراء المصريين. . . »[2].

وقال ابن رجب: «كان رحمه الله ذا عبادةٍ وتَهَجُّدٍ وطُولِ صلاةٍ إلى الغاية القُصوى وتألُّهٍ ولَهَجٍ بالذكر وشَغَفٍ بالمحبة والإنابة والاستغفار والافتقار إلى الله والانكسار له، والاطراح بين يديه على عتبةِ عبوديته، لم أُشاهِدْ مثلَهُ في ذلك، ولا رأيت أوسع منه علماً، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه، وليس هو بالمعصوم، ولكن لم أر في معناه مثله. . . »[3].

وقال ابن العماد الحنبلي صاحب الشذرات عنه: «الفقيه الحنبلي بل المجتهد المُطْلَق المُفَسِّر النَّحوي الأُصوليُّ المتكلِّمُ الشهير بابن قَيِّم الجوزية»[4].

وقال القاضي برهان الدين الزرعي عنه: «ما تحت أديم السماء أوسع علماً منه ودَرَّس بالصدرية وأَمَّ بالجوزيَّة مُدَّةً طويلة وكتب بخطه ما لا يُوصفُ كَثْرَةً وصَنَّفَ تصانيفَ كثيرة جداً في أنواع العلومِ وكان شديدَ المحبةِ للعلمِ وكتابته ومطالعته وتصنيفه واقتناء كتبه. . . »[5].

وقال السيوطي عنه: «. . . وصار من الأئمة الكبار في التفسير والحديث والفروع والأصلين والعربية»[6].

---

(١) بل ثبت أن ابن القيم يخالف شيخه ابن تيمية متى استبان له الدليل ووضح أمامه الحق في غير ما ارتآه وانظر أمثلة ذلك في كتاب «ابن قيم الجوزية حياته وآثاره لبكر عبد الله أبو زيد ص٨٦ـ٩٧، وقد قال الشوكاني في البدر الطالع ٢/١٤٣ـ١٤٤ عن ابن القيم: «كان متقيداً بالأدلة الصحيحة، معجباً بالعمل بها غير معول على الرأي، صادعاً بالحق، لا يحابي فيه أحداً. . . ».

(٢) الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني ٤/٢١.

(٣) الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ٢/٤٤٨.

(٤) شذرات الذهب ٦/١٦٨.

(٥) شذرات الذهب ٦/١٦٩.

(٦) بغية الوعاة للسيوطي ١/٦٣.

محنته[1]:

لقد أصابَ ابن القيِّم ما أصابَ شيخَهُ ابن تيمية وما يُصيبُ المُصلحين والمُجَدِّدين عادةً من أذىً واضطهاد بسبب قولهم الحق وجهرهم به، فقد اعْتُقِلَ مع ابن تيمية بالقلعة بعد أن أُهين وطيفَ به على جمل مضروباً بالدِّرَّة[2] لإنكاره شد الرحل لزيارة قبر الخليل، ولما مات ابن تيمية أُفرج عنه، وامْتُحِنَ مرةً أُخرى بسبب فتاوى ابن تيمية، وكان ينال من علماء عصره وينالون منه، وكان في مدة حبسه مُشتَغِلاً بتلاوةِ القرآن وبالتدبُّر والتفكُّر ففُتح عليه من ذلك خير كثير وحَصَلَ له جانبٌ عظيمٌ من الأذواق والمواجيد الصحيحة والعلم الوفير.

وفاته:

توفي في رجب سنة ٧٥١هـ يوم الأربعاء ليلاً، وصُلِّي عليه في اليوم التالي بعد صلاة الظهر في المسجد الجامع، ودفن في مقبرة الباب الصغير بدمشق رحمه الله ورفع درجاته ونفع بعلمه.

أسماء مؤلفاته:

لقد ألَّف ابن القيم ـ رحمه الله ـ في الفقه والأصول والتصوف وعلم الكلام والجدل والسيرة والتاريخ والاجتماع وغير ذلك، ومن مؤلفاته:

الاجتهاد والتقليد، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، بدائع الفوائد، بطلان الكيمياء من أربعين وجهاً، التحفة المكية، تهذيب مختصر سنن أبي داود، جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، جوابات عابدي الصلبان وأن ما هم عليه دين الشيطان، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح،

(١) انظر الدرر الكامنة لابن حجر ٢١/٤، وابن قيم الجوزية لمحمد مسلم الغنيمي ص١٠٦، ورجال الفكر والدعوة في الإسلام للندوي ص٣١٧.

(٢) قال ابن منظور في لسان العرب (٢٨٢/٤): «الدِّرةُ: التي يضرب بها، عربية معروفة، وفي التهذيب: الدِّرة: دِرَّة السلطان التي يضرب بها».

الحاوي، حُرْمة السماع، حُكم تارك الصلاة، الداء والدواء، دواء القلوب، ربيع الأبرار في الصلاة على النبي المختار، الرسالة الحلبية في الطريقة المحمدية (نـظم)، الرسالة التبوكية، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، رفع اليدين في الصلاة، الروح، شرح الأسماء الحسنى، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمـــة والتعليل، الصبـر والسكن، الصـراط المستقيم في أحكـام أهـل الجحيم، الصواعق المنزلة على الجهمية والمعطلة، طيب القلوب، الطاعون، الطب النبوي، طريق الهجرتين وباب السعادتين، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، عُدَّة الصابرين وذخيرة الشاكرين، الفتح المكي، الفتوحات القدسية، الفروسية، فضائل النبي ﷺ، فضل الجهاد وأهله،-فضل العلم وأهله، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، مفتاح دار السعادة، مدارج السالكين وغيرها.

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين وعليه نتوكل

[مقدمة المؤلف]

قال الشيخُ الإمامُ العالمُ العلاَّمةُ محمدُ بنُ أبي بكر، المعروف بابن قَيِّمِ الجوزية رضيَ اللهُ عنه وأرضاه ـ في كتابه الذي سيَّرهُ من تبوك[1] ثامنَ المُحَرَّمِ سنة ثلاثٍ وثلاثينَ وسبعمائة ـ بعد كلامٍ له سَبَقَ:

أحمدُ اللهَ بمحامدِهِ التي هو لها أَهْلٌ، والصلاةُ والسلامُ على خاتَمِ رُسُلِهِ وأنبيائِهِ محمَّدٍ ﷺ.

وبعد: فإنَّ اللهَ سُبحانَهُ وتعالى يقول في كتابه: ﴿وَتَعَاونوا على البرِّ والتَّقوى وَلاَ تَعَـاوَنُوا على الإِثْمِ والعُدوَانِ، واتَّقوا الله إنَّ الله شَديدُ العِقَابِ﴾[2]. وقد اشتملت هذه الآيةُ على جميعِ مصالحِ العِبَادِ في معاشِهِم ومَعَادِهِم، فيما بينهم بعضهم بعضـاً، وفيمـا بينهم وبين ربهم، فإنَّ كلَّ عبـدٍ لا يَنفـكُّ عن هاتين الحالتين، وهذين الواجبين: واجبٍ بينه وبين الله، وواجب بينه وبين الخلق.

فأمَّا ما بينه وبين الخلق: من المعاشرة والمُعَاونَةِ والصُّحبةِ، فالواجبُ عليه فيها أن يكون في اجتماعه بهم، وصحبته لهم، تعاوناً على مرضاةِ الله وطاعته، التي هي غايةُ سَعادةِ العبدِ وفلاحِهِ ولا سعادةَ له إلاَّ بها، وهي البر والتقوى،

---

(١) تبوك: موضع بين وادي القُرَى والشام. وهي الآن من المدن التي تقع بشمال المملكة العربية السعودية. (انظر معجم البلدان ٢/١٤).

(٢) الآية ٢ من سورة المائدة.

اللذان هما جماعُ الدين كله، وإذا أُفردَ كلُّ واحدٍ من الاسمين دَخَلَ في مُسمَّى الآخر، إمَّا تضمناً وإما لزوماً، ودخوله فيه تضمناً أظهر؛ لأنَّ البرَّ جزءُ مسمى التقوى، وكَذلكَ التقوى، فإنَّه جُزءُ مسمًّى البر. وكون أحدهما لا يدخل في الآخر عند الاقترانِ لا يدلُّ على أنَّه لا يدخلُ فيه عند انفرادِ الآخر.

ونَظيرُ هذا لَفْظُ «الإيمان والإسلام» و«الإيمان والعمل الصالح» و«الفقير والمسكين» و«الفسوق والعصيان» و«المنكر والفاحشة» ونظائره كثيرة. وهذه قاعِدَةٌ جليلةٌ مَنْ أَحَاطَ بها زالَتْ عنه إشْكَالاَتٌ كثيرة أَشكلَتْ على كثيرٍ من النَّاس.

البر والتقوى:

وَلْنَذْكُر من هذا مِثالاً واحِداً يُستدلُّ به على غيره، وهو البر والتقوى. فإنَّ حقيقة البِرِّ: هو الكمالُ المطلوبُ من الشيء والمنافعُ التي فيه والخير، كما يدلُّ عليه اشتقاقُ هذهِ اللفظة وتصاريفها في الكلام.

ومنه «البُرّ» بالضمِّ لمنافعه وخيره بالإضافة إلى سائر الحبوب.

ومنه رجل بارٌّ، وبَرٌّ، وكرامٌ بَرَرَةٌ، والأَبرارُ.

فالبِرُّ: كلمةٌ جامِعةٌ لجميعِ أنواعِ الخيرِ والكمالِ المطلوبِ من العبدِ. وفي مقابلته الإِثم. وفي حديثِ النَّواس بن سمعان[1] أنَّ النَّبي ﷺ قال له: «جئتَ تسأل عن البرِّ والإِثم»[2].

---

(١) هو النَّواسُ بنُ سِمْعَان بن خالد بن عبد الله بن أبي بكرة بن كلاب بن ربيعة الكلابي، معدود في الشاميين، يُقال: إنَّ أباه سمعان بن خالد وفد على النبي ﷺ فدعا له رسول الله وأعطاه نعليه فقبلهما رسول الله ﷺ، وزوجه أخته فلما دخلت على النبي تعوَّذت منه فتركها وهي الكلابية، روى عن النواس بن سمعان جبير بن نفير ونفير بن عبد الله وجماعة. (انظر الاستيعاب بهامش الإصابة ٣/٥٣٩).

(٢) حديث النَّواس بن سمعان رواه: مسلم في كتاب البر والصلة والآداب باب تفسير البر والإثم ٤/١٩٨٠، والدارمي في كتاب الرقائق باب في البر والإثم ٢/٣٢٢، والترمذي

فالإثم كلمةٌ جامعةٌ للشُّرورِ والعُيوبِ التي يُذمُّ العَبْدُ عليها.

فيدخلُ في مُسمَّى البِّر: الإيمانُ وأجزاؤُه الظاهرةُ والبَاطنةُ، ولا رَيبَ أَنَّ التقوى جُزءٌ هذا المعنى. وأكثرُ ما يعبِّر عن برِّ القلب، وهو وجودُ طعم الإيمان فيه وحلاوته، وما يلزم ذلك من طمأنينته وسَلامته، وانشراحِهِ وقوته، وفرحه بالإيمان. فإنَّ للإيمان فَرْحةً وحَلاوةً ولَذَّةً في القلب، فمَنْ لَمْ يَجدْها فهو فاقدُ الإيمان أو ناقصه. وهو من القسم الذين قال الله عزَّ وجل فيهم: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمنا ولَمَّا يَدْخُلِ الإيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[1].

فهؤلاء ـ على أصح القولين ـ مُسلِمون غيرُ منافقين وليسوا بمؤمنين؛ إذْ لَمْ يَدْخُلْ الإيمانُ في قلوبهم فيُبَاشرها حقيقةً.

وقد جَمَع الله خصالَ البرِّ في قوله: ﴿لَيسَ البرَّ أنْ تُولُّوا وجوهَكم قِبَلَ المشرقِ والمَغربِ ولكنَّ البرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ والملائكَةِ والكِتَابِ والنبيِّينَ وآتى المَالَ على حُبِّهِ[2] ذَوي القُربى واليَتَامى والمساكينَ وابنَ السبيلِ والسائلين وفي الرِّقابِ وأَقَامَ الصَّلاة وآتى الزَّكاة والمُؤمنون بعَهْدهم إذا عاهدوا

في كتاب الزهد باب ما جاء في البر والإثم ٤/٥٩٧، والإمام أحمد في مسنده ٤/١٨٢، وقد جاء الحديث بلفظ مختلف عما نقله المصنف هنا، أما هذا اللفظ فقد جاء في حديث وابصة بن معبد وقد رواه: الإمام أحمد في مسنده ٤/٢٢٧ـ٢٢٨ وأبو يعلى، انظر مجمع الزوائد ١/١٧٥: وقال الهيثمي في المجمع ١/١٧٥: «وفيه أيوب بن عبد الله بن مكرز قال ابن عدي: لا يتابع على حديثه ووثقه ابن حبان».

(١) الآية ١٤ من سورة الحجرات.

(٢) آتى المال على حبه: أي أخرجه وهو محبٌّ له راغِبٌ فيه. (تفسير ابن كثير ١/١٦٧. وكذا الذي يريد سفراً في طاعة فيعطى ما يكفيه في ذهابه وإيابه ويدخل في ذلك الضيف (انظر تفسير ابن كثير ١/١٩٧).

والصابرين في البأساءِ والضَّرَّاء وحينَ البأسِ ، أُولئكَ الذين صدَقُوا وأولئك هم المُتَّقون﴾[1].

فأخبر سبحانه أنَّ البِرَّ هو الإيمان باللهِ وبملائكته وكُتُبِهِ ورُسُله واليومِ الآخِرِ، وهذه هي أُصولُ الإيمانِ الخمس التي لا قوامَ للإيمان إلَّا بِها.

وأنَّها الشَّرائعُ الظاهرة: من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنفقات الواجبة.

وأنَّها الأعمال القلبية التي هي حقائقه، من الصبر والوفاء بالعهد، فتناولت هذه الخِصال جميعَ أقسامِ الدين، حقائقه وشرائعه والأعمال المتعلقة بالجوارحِ والقلب، وأصول الإيمان الخمس، ثم أخبر سُبحانَهُ عن هذه أنَّها هي خصال التقوى بعينها فقال: ﴿أولئك الَّذين صَدَقُوا وأُولئك هم المُتَّقون﴾[2].

التقوى:

وأمَّا «التَّقوى» فحقيقتُها العملُ بطاعةِ الله إيماناً واحتساباً، أمراً ونهياً، فيفعل ما أمر الله به إيماناً بالأمر، وتصديقاً بوعده، ويترك ما نهى الله عنه إيماناً بالنهي وخوفاً من وعيده. كما قال طلقُ بن حبيب[3]: «إذا وَقَعَتْ الفتنةُ فاطفئوها بالتقوى»، قالوا: وما التقوى؟ قال: «أن تعمل بطاعةِ الله على نورٍ من اللهِ، ترجو ثوابَ اللهِ وأن تتركَ معصيةَ اللهِ على نورٍ من اللهِ، تخاف عقابَ اللهِ»[4].

وهذا من أحسنِ ما قيلَ في حَدِّ التقوى.

---

(١) الآية ١٧٧ من سورة البقرة.

(٢) الآية ١٧٧ من سورة البقرة.

(٣) هو طلق بن حبيب العَنَزي البصري روى عن عبد الله بن عباس وابن الزبير وابن عمرو بن العاص وجابر وجندب وغيرهم، صدوق. عابد، رُمي بالإرجاء من الثالثة، مات بعد التسعين. (انظر ترجمته في تهذيب التهذيب ٥/٣١، تقريب التهذيب ص٢٨٣، حلية الأولياء ٣/٦٣).

(٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٣/٦٣.

فإنَّ كلَّ عملٍ لا بُدَّ له من مبدأ وغاية، فلا يكون العملُ طاعةً وقُربَةً حتى يكون مصدره عن الإيمان، فيكون الباعثُ عليه هو الإيمان المحضُ، لا العادة ولا الهوى ولا طَلَب المحمدةِ والجاهِ وغير ذلك، بل لا بُدَّ أن يكونَ مبدؤه محضَ الإيمانِ وغايتهُ ثوابَ اللهِ وابتغاءَ مرضاته وهو الاحتساب.

ولهذا كثيراً ما يُقرنُ بينَ هذين الأصلين في مثل قول النبي ﷺ: «من صامَ رمضانَ إيماناً واحتساباً» و«من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً»[1] ونظائره.

فقوله[2]: «على نورٍ من الله» إشارة إلى الأصل الأوَّلِ وهو الإيمانُ الذي هو مصدرُ العمل والسبب الباعث عليه. وقوله: «ترجو ثواب الله» إشارة إلى الأصل الثاني وهو الاحتساب، وهو الغاية التي لأجلها يوقع العمل، ولها يقصدُ به.

ولا ريب أنَّ هذا اسمٌ لجميعِ أُصولِ الإيمانِ وفُروعِهِ وأنَّ البرَّ داخلٌ في هذا المُسمَّى.

وأمَّا عِنْدَ اقترانِ أحدهما بالآخر، كقوله تعالى: ﴿وتعاونوا على البرِّ والتَّقوى﴾[3]، فالفرق بينهما فرق بين السبب المقصود لغيره والغاية المقصودة لنفسها؛ فإنَّ البرَّ مطلوبٌ لذاته، إذْ هو كمالُ العبد وصلاحُهُ الذي لا صلاح له بدونه كما تَقَدَّم.

---

(١) الحديث رواه: البخاري في كتاب الصوم باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً ونية، انظر فتح الباري ٤/١١٥، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب الترغيب في قيام رمضان ١/٥٢٤، وأبو داود في كتاب الصلاة باب في قيام شهر رمضان ٢/١٠٣، والنسائي في كتاب الصيام باب ثواب من قام رمضان وصامه إيماناً واحتساباً ٤/١٥٧، والترمذي في كتاب الصوم باب ما جاء في فضل شهر رمضان ٣/٥٨، وابن ماجة مختصراً في كتاب إقامة الصلاة باب ما جاء في قيام شهر رمضان ١/٤٢٠، ومالك مختصراً في كتاب الصلاة في رمضان باب الترغيب في الصلاة في رمضان ١/١١٣، والدارمي في كتاب الصيام باب في فضل شهر رمضان ٢/٢٦، والإمام أحمد في مسنده ٢/٤٠٨.

(٢) أي طلق بن حبيب.

(٣) الآية ٢ من سورة المائدة.

وأمَّا التَّقوى: فهي الطريقُ الموصلُ إلى البرِّ والوسيلةُ إليه، ولفظها يدلُّ على هذا، فإنه فَعْلَى، من وقى يقي، وكان أصلها وقوى فقلبوا الواو تاء، كما قالوا تراث من الوراثة، وتجاه من الوجه، وتخمة من الوخمة، ونظائرها: فلفظها دال على أنها من الوقاية، فإنَّ المتقي قد جعل بينه وبين النار وقاية، والوقايةُ من بابِ دفع الضرر، فالتقوى والبر كالعافية والصحة[1].

العلم النافع:

وهـذا بابٌ شريفٌ يُنتفعُ به انتفاعاً عظيماً في فهم ألفاظِ القرآن ودلالته، ومعرفةِ حُدودِ ما أنزلَ الله على رَسُولِهِ، فإنَّهُ هو العِلْمُ النافعُ.

وقد ذَمَّ اللهُ تعالى في كتابه مَنْ ليسَ له عِلْمٌ بحدود ما أُنزلَ اللهُ على رسوله. فإنَّ عدمَ العلمِ بذَلِكَ مُستَلْزِمٌ مفسدتين عظيمَتين.

إحـداهما: أنْ يُدخِلَ في مُسمَّى اللَّفظ ما ليسَ منه، فيحكم له بحكمِ المُرادِ من اللفظ، فيساوي بين ما فَرَّق اللهُ بينهما.

والثانية: أن يُخْرِجَ من مُسمَّى اللَّفظ بعضَ أفراده الدَّاخلة تحته، فيسلب عنه حكمه، فيفرِّق بين ما جمعَ اللهُ بينهما.

والـذَّكيُّ الفَـطِنُ يَتَفَـطَّنُ لإفرادِ هذه القاعدة وأمثالها، فيرى أن كثيراً من الاختلاف أو أكثره إنما ينشأُ من هذا الموضع.

وتفصيلُ هذا لا يفي به كتابٌ ضخم.

---

(١) جاء في المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص٥٣٠: «الوقاية حفظُ الشيء مما يؤذيه ويضُرُّهُ يقال وقيتُ الشيء أقيه وقايةً ووِقاءً... والتقوى جعلُ النفس في وقاية مما يخافُ، هذا تحقيقه، ثم يُسمى الخوفُ تارةً تقوى، والتقوى خوفاً حَسْب تسميةُ مقتضى الشيء بمُقْتَضيه، والمُقْتضى بمقتضاه، وصار التقوى في تعارف الشرع حفظ النفس عما يُؤثم، وذلك بترك المحظور ويتم ذلك بترك بعض المباحات...».

ومن هذا لفظ: (الخَمْـر) فإنـه اسمٌ شاملٌ لِكُلِّ مُسكِرٍ، فلا يجوزُ إخراجُ بعضِ المُسكراتِ منه وينفي عنها حكمه.

وكذلك لفظ: (المَيْسِر) وإخراج بعض أنواع القمار منه.

وكذلك لفظ: (النكاح) وإدخال ما ليس بنكاحٍ في مسماه.

وكذلك لفظ: (الربا) وإخراج بعض أنواعه منه، وإدخال ما ليس برباً فيه.

وكذلك لفظ: (الظلم والعدل) و(المعروف والمنكر) ونظائره أكثر مِنْ أنْ تُحصى.

والمقصود من اجتماع الناسِ وتعاشرهم: هو التعاونُ على البرِّ والتقوى، فيعينُ كُلُّ واحدٍ صاحِبَهُ على ذَلِكَ عِلماً وعملاً.

فإنَّ العَبْدَ وحْدَهُ لا يستقلُّ بعلمِ ذلِكَ ولا بالقُدْرةِ عليه. فاقتضت حكمةُ الربِّ سُبحانَهُ أنْ جَعَلَ النوعَ الإنساني قائماً بعضه ببعضه، معيناً بعضه لبعضه.

ثم قالَ تعالى: ﴿وَلاَ تعاوَنوا عَلى الإثْمِ والعُدْوان﴾[1].

و(الإثم والعدوان) في جانب النهي نظير: (البر والتقوى) في جانب الأمر. والفرق بين الإثم والعدوان كالفرق ما بين مُحَرِّم الجِنس ومُحرِّم القدر[2].

الإثم:

فالإثم ما كان حراماً لجنسه.

والعدوانُ ما حُرِّمَ لزيادةٍ في قدره وتعدى ما أباح الله منه.

فالزنا والخمر والسرقة ونحوها: إثم.

---

(١) الآية ٢ من سورة المائدة.

(٢) أي الكمية والزيادة.

ونكاح الخامسة واستيفاء المجني عليه أكثر من حَقِّه ونحوه: عُدوان.

العدوان:

فالعُدوان هو تَعدي حدودَ الله التي قال فيها: ﴿**تِلكَ حُدُودُ اللهِ فلا تعتدُوها ومَنْ يَتَعدَّ حُدودَ اللهِ فأُولئك هُم الظالمون**﴾[1].

وقال في موضعٍ آخر: ﴿**تِلكَ حُدُودُ اللهِ فلا تَقربُوها**﴾[2]. فنهى عن تعديها في آية وعن قُربانِها في آية. وهذا لأنَّ حُدودَهُ سُبحانَهُ هي النهاياتُ الفاصلة بين الحلالِ والحرامِ، ونهايةُ الشيء تارةً تدخلُ فيه فتكون منه، وتارةً لا تكون داخلة فيه فيكـون لها حُكْمُ المقابلة. فبالاعتبار الأوَّلِ نَهى عن تعدِّيها، وبالاعتبارِ الثاني نهى عن قُربانها.

---

(١) الآية ٢٢٩ من سورة البقرة.

(٢) الآية ١٨٧ من سورة البقرة.

فصـــل

ما بين العبد وربه

فهذا حُكمُ العبدِ فيما بينه وبينَ الناسِ ، وهو أنْ تكون مُخالطتُهُ لهم تعاوناً على البرِّ والتقوى، عِلماً وعملاً .

وأمَّا حالة فيما بينه وبين الله تعالى : فهو إيثار طاعته وتجنب معصيته، وهو قوله تعالى : ﴿واتقوا الله﴾[1] .

فأرشدت الآيةُ إلى ذكرِ واجبِ العبدِ بينه وبين الخلقِ وواجبه بينه وبين الحق . ولا يتمُّ له أداءُ الواجبِ الأول إلا بعزل نفسه من الوسط، والقيام بذلك لمحض النصيحة والإحسان ورعاية الأمر، ولا يتم له أداء الواجب الثاني إلا بعزل الخلق من البين، والقيام له بالله إخلاصاً ومحبَّةً وعُبودية[2] .

فينبغي التفطنُ لهذه الدقيقة التي كُلُّ خَلل يدخل على العبد في أداء هذين الأمرين الواجبين إنما هو من عدم مراعاتها علماً وعملاً . وهذا معنى قول الشيخ عبد القادر[3] قدَّس الله روحه : «كُنْ مع الحق بلا خلق، ومع الخلق بلا نفس،

---

(١) الآية ٢ من سورة المائدة .

(٢) انظر مدارج السالكين للمصنف ٣٦٨/١-٣٧١ .

(٣) هو عبد القادر بن أبي صالح بن جنكي دوست بن أبي خالد بن عبد الله الجيلي ثم البغدادي الحنبلي المشهور الزاهد صاحب المقامات والكرامات وشيخ الحنابلة، ولد بجيلان سنة ٤٩١هـ وتوفي سنة ٥٦١هـ وهو مؤسس الطريقة القادرية . له كتب منها : «الغنية لطالب الحق» و«الفتح الرباني» و«فتوح الغيب» و«الفيوضات الربانية» . (انظر =

ومَنْ لم يكن كذلك لم يزل في تخبيط ولم يزل أمره فرطاً»[1].

والمقصود بهذه المقدمة ما بعدها.

= ترجمته في: الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ١/ ٢٩٠، وفوات الوفيات ٢/٣٧٣، والأعلام للزركلي ٤/٤٧).

(١) فُرُطاً: أي مجاوزاً فيه الحد. (مختار الصحاح ص٤٩٩).

فصـــل

في الهجرة إلى الله ورسوله

لمـا فَصَـلَ عِيرُ[1] السفـر، واستوطن المسافرُ دارَ الغربة وحِيلَ بينه وبين مألوفاته وعوائده المتعلقة بالوطن ولوازمه: أَحْدَثَ له ذلِكَ نظراً فأَجَالَ فكرَهُ في أهم ما يقطع به مَنازِلَ السفرِ إلى الله وينفق فيه بقية عمره، فأَرْشَدهُ من بيدهِ الرُّشد إلى أنَّ أهم شيءٍ يقصده إنما هو الهجرة إلى اللهِ ورسوله، فإنَّها فرضُ عينٍ على كُلِّ أَحَدٍ في كلِّ وقتٍ، وأنه لا انفكاكَ لأحدٍ عن وجوبها، وهي مَطلوبُ الله ومراده من العباد، إذ الهجرة هجرتان.

نوعا الهجرة:

هِجْـرةٌ بالجسمِ من بلدٍ إلى بَلَدٍ، وهـذه أحكامُها معلومة، وليس المرادُ الكـلام فيهـا. والهجـرة الثـانية: الهجرة بالقلب إلى الله ورسوله، وهذه هي المقصودة هنا. وهذه الهجرةُ هي الهجرة الحقيقيةُ وهي الأصلُ، وهجرةُ الجسدِ تابعةٌ لها.

مبدأ الهجرة ومنتهاها:

وهي هِجرةٌ تتضمن (من) و(إلى) فيهاجر بقَلْبه من مَحَبَّةِ غيرِ اللهِ إلى محبته. ومن عبودية غيره إلى عبوديته. ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه إلى خوف

---

(١) العيرُ: القافلة وقيل: العيرُ الإبل التي تحملُ الميرة (أي الطعام) وفي التنزيل: ﴿ولما فَصَلَت العير﴾ الآية ٩٤ من سورة يوسف. (انظر لسان العرب لابن منظور ٤/٦٢٤).

الله ورجـائـه والتـوكـل عليه. ومن دُعـاءِ غيره وسؤالـهِ والخضـوع له والـذلّ والاستكانة[1] له إلى دعائه وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له. وهذا بعينه معنى ا لفرار إليه قال تعالى: ﴿فَفِرُّوا إلى اللهِ﴾[2]. والتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من اللهِ إليه.

الفرار إلى الله:

وتحت (من) و(إلى) في هذا سرٌّ عظيمٌ من أسرارِ التوحيد.

فإن الفـرار إليه سبحـانـه يَتضَمَّنُ إفـرادَهُ بالطلب والعبودية ولوازمها، فهو مُتضمِّنٌ لتـوحيدِ الإلهية التي اتَّفقت عليها دعوةُ الرسل، صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهم أجمعين.

الفرار من الله:

وأمَّا الفرارُ منه إليه فهو مُتَضَمِّنٌ لتوحيدِ الربوبية وإثبات القدر، وأن كل ما في الكون من المكروه والمحذور الذي يفرُّ منه العبد، فإنما أوجبته مشيئة الله وحـده، فإنَّهُ ما شاءَ كانَ ووجب وجودُهُ بمشيئته، وما لـم يشأْ لم يكنْ، وامتنع وجودُهُ لعدمِ مشيئته. فإذا فَرَّ العبدُ إلى الله فإنما يفرُّ من شيءٍ إلى شيء وُجِدَ بمشيئة اللهِ وقدره، فهو في الحقيقة فارٌّ من الله إليه.

ومَنْ تصوَّر هذا حقَّ تصوره فهم معنى قوله ﷺ: «وأعوذُ بِكَ مِنْكَ»[3] وقوله:

---

(١) الاستِكَانة: الخُضُوع. (مختار الصحاح للرازي ص٥٨٤).

(٢) الآية ٥٠ من سورة الذاريات.

(٣) هذا جزء من حديث رواه عن عائشة: مسلم في صحيحه كتاب الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود ١/٣٥٢ حديث رقم (٤٨٦)، وأبو داود في كتاب الصلاة باب في الدعاء في الركوع والسجود ١/٥٤٧ حديث رقم (٧٨٩)، والنسائي في كتاب الطهارة باب ترك الرجل الوضوء من مس الرجل امرأته من غير شهوة ١/١٠٢ حديث رقم (١٦٩)، وابن ماجة في كتاب الدعاء باب ما تعوَّذ منه رسول الله ﷺ ٢/١٢٦٣ حديث رقم (٣٨٤١)، والإمام أحمد في مسنده ج٦ ص٥٨.

«لا ملجأ ولا مَنْجى مِنكَ إلاَّ إليك»[1]. فإنَّه ليس في الوجود شيء يفر منه ويُستعاذُ منه، ويلتجأ منه، إلا هو من الله خلقاً وإبداعاً.

فالفارُّ والمستعيذُ فارٌّ مما أوجده قدر الله ومشيئته وخلقه إلى ما تقتضيه رحمتُهُ وبرُّه ولُطْفُهُ وإحسانُهُ، ففي الحقيقة هو هاربٌ من الله إليه، ومُستعيذٌ بالله منه.

وتصوُّرُ هذين الأمرين يُوجبُ للعبد انقطاعَ تعلقِ قلبه عن غيره بالكلية خوفاً ورجاءً ومحبة، فإنَّه إذا عَلِمَ أنَّ الذي يفر منه ويستعيذ منه إنما هو بمشيئة الله وقدرته وخلقه لم يَبْقَ في قلبه خوف من غير خالقه وموجده، فتَضَمَّنَ ذلك إفرادَ اللهِ وحدَهُ بالخوفِ والحُبِّ والرَّجاء، ولو كَانَ فِرارُه مما لم يكن بمشيئةِ اللهِ ولا قُدرَتِهِ، لكانَ ذلك موجِباً لخوفه مِنه، مثل من يفر من مَخلوقٍ إلى مَخلوقٍ آخر أقدر منه، فإنَّه في حال فِراره من الأول خائف منه حذراً أن لا يكون الثاني يفيده منه، بخلاف ما إذا كان الذي يفر إليه هو الذي قضى وقدَّر وشاء ما يفر منه، فإنه لا يبقى في القلب التفات إلى غيره.

فَتَفَطَّنْ إلى هذا السرّ العجيب في قوله: «أعوذُ بك منك»[2] و«ولا ملجأ ولا

= ورواه عن علي: الترمذي في كتاب الدعوات باب في دعاء الوتر ٥/٥٦١ حديث رقم (٣٥٦٦) والإمام أحمد في مسنده ج١ص٩٦، ١١٨، ١٥٠.

(١) رواه عن البراء بن عازب: البخاري في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿أنزله بعلمه والملائكة يشهدون﴾، ١٣/٤٦٢ حديث رقم (٧٤٨٨) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ٤/٢٠٨٢ حديث رقم (٢٧١٠)، وأبو داود في كتاب الأدب باب ما يقول عند النوم ٥/٢٩٨ حديث رقم (٥٠٤٦) والترمذي في كتاب الدعوات باب ما جاء في الدعاء إذا أوى إلى فراشه ٥/٤٦٩ حديث رقم (٣٣٩٤)، وابن ماجة في كتاب الدعاء باب ما يدعو به إذا أوى إلى فراشه ٢/١٢٧٦ حديث رق م(٣٨٧٦)، والدارمي في كتاب الاستئذان باب الدعاء عند النوم ٢/٢٩٠، والإمام أحمد في المسند ٤/٢٨٥، ورواه الترمذي عن رافع بن خديج في كتاب الدعوات باب ما جاء في الدعاء إذا أوى إلى فراشه ٥/٤٦٩ حديث رقم (٣٣٩٥).

(٢) سبق تخريجه ص٢٤.

مَنْجى منك إلا إليك»[1] فإنَّ الناس قد ذكروا في هذا أقوالاً وقَلَّ من تَعَرَّض منهم لهذه النكتة التي هي لبُّ الكلام ومقصوده. وبالله التوفيق.

الهجرة إلى الله:

فتأمل كيف عاد الأمر كلُّه إلى الفرارِ من الله إليه، وهو معنى الهجرة إلى الله تعالى. ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «المهاجرُ من هَجَر ما نهى اللهُ عنه»[2]، ولهذا يقرنُ اللهُ سبحانه بين الإيمان والهجرة في غير موضع لتلازمهما واقتضاء أحدهما للآخر[3]. والمقصود: أن الهجرة إلى الله تتضمنُ هجران ما يكرهه وإتيان ما يحبه ويرضاه، وأصلها الحب والبغض، فإنَّ المهاجر من شيء إلى شيء لا بُدَّ أن يكون ما هاجر إليه أحب مما هاجر منه، فيؤثر أحب الأمرين إليه على الآخر. وإذا كان نفس العبد وهواه وشيطانه إنما يدعونه إلى خلاف ما يحبه ويرضاه، وقد بُلي بهؤلاء الثلاث فلا يزالون يدعونه إلى غير مرضاة ربه، وداعي الإيمان يدعوه إلى مرضاة ربه، فعليه في كل وقت أن يهاجر إلى الله، ولا ينفك في هجرته إلى الممات.

---

(١) سبق تخريجه ص٢٥.

(٢) الحديث رواه عن عبد الله بن عمرو: البخاري في كتاب الإيمان باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ١/٥٣ حديث رقم (١٠) وفي كتاب الرقائق باب الانتهاء عن المعاصي ١١/٣١٦ حديث رقم (٦٤٨٤)، وأبو داود في كتاب الجهاد باب في الهجرة هل انقطعت؟ ٣/٩ حديث رقم (٢٤٨١)، والإمام أحمد في مسنده ٢/١٦٣.

(٣) مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين هَاجَروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله﴾ (البقرة: ٢١٨) وقوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله...﴾ (الأنفال: ٧٢)، وقوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضُهُم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين...﴾ (الأحزاب: ٦) وغير ذلك من الآيات التي اقترن فيها ذكر الإيمان بالهجرة.

فصل

الهجرة بين القوة والضعف

وهذه الهجرة تقوى وتضعف بحسبِ داعي المحبةِ في قَلبِ العبدِ، فإنْ كانَ الداعي أقوى كانت هذه الهجرة أقوى وأتم وأكمل. وإذا ضَعُفَ الداعي ضَعُفَتْ الهجرة حتى لا يكاد يشعر بها علماً، . ولا يتحرك لها إرادة.

الهجرة العارضة:

والـذي يقضي منـه العجب: أنَّ المرء يوسعُ الكلامَ ويفرعُ المسائلَ في الهجرةِ من دارِ الكُفْرِ إلى دارِ الإسلام. وفي الهجرة التي انقطَعَتْ بالفتح، وهذه هجرةٌ عارِضَةٌ ربما لا تتعلقُ به في العمر أصلاً.

الهجرة الدائمة:

وأما هذه الهجرة التي هي واجبةٌ على مَدَى الأنفاس، فإنه لا يُحصِّل فيها علماً ولا إرادةً، وما ذلكَ إلاَّ للإعراض عما خلق له، والاشتغال بما لا ينجيه وحده عما لا ينجيه غيره وهذا حال من عَشَتْ[1] بصيرتُهُ وضَعُفَتْ معرفته بمراتبِ العلوم والأعمال والله المستعانُ وبالله التوفيق، لا إله غيره ولا ربَّ سِواه.

---

(١) عَشَتْ: ضَعُفَتْ. (مختار الصحاح ص٤٣٥).

فصل

في الهجرة إلى رسول الله ﷺ

وأمَّا الهجرةُ إلى رسولِ الله ﷺ فَعِلْمٌ لم يبقَ منه سوى اسمه، ومنهج لم تترك بُنيَّات الطريق[1] سوى رسمه[2]، ومَحَجَّةٌ[3] سفت[4] عليها السَّوافي[5] فطمست رسومها، وغارت عليها الأعادي فغوَّرت[6] مناهلها وعيونها، فسالكها غريبٌ بين العِباد، فريدٌ بين كلِّ حي وناد، وبعيد على قرب المكان، وحيد على كثرة الجيران، مستوحش مما به يستأنسون، مستأنس بما به يستوحشون، مقيم إذا ظعنوا[7]، ظاعن إذا قطنوا[8]، منفرد في طريق طلبه، لا يقر قراره حتى يظفر به. فهو الكائن معهم بجسده، البائن منهم بمقصده، نامت في طلب الهدى أعينهم، وما ليل مطيته بنائم. وقعدوا عن الهجرة النبوية، وهو في طلبها مُشمّر قائم، يعيبونه بمخالفة آرائهم، ويزرون عليه إزراءه[9] على جهالاتهم وأهوائهم،

(١) بُنيَّات الطريق: هي الطُرق الصِغار تتشعب من الجَادَّة. (مختار الصحاح ص٦٦).

(٢) رسمه، أثره. (مختار الصحاح ص٢٤٣).

(٣) المَحَجَّة: جادَّة الطريق. (مختار الصحاح ص١٢٣).

(٤) قال ابن منظور في لسان العرب: «سَفَتْ الريحُ التراب تسفيه سفياً: ذَرَتْه، وقيل حملته فهو سفيٌّ». (لسان العرب ١٤/٣٨٩).

(٥) السَّوافي من الرياح: اللواتي يسفين التراب. (لسان العرب ١٤/٣٨٩).

(٦) غَوَّر: ذهَبَ في الأرض وسَفَلَ فيها. (لسان العرب ٥/٣٤).

(٧) ظَعَنوا: ساروا. (مختار الصحاح ص٤٠٤).

(٨) قَطَنُوا: أقاموا بالمكان وتوطَّنوا فيه. (مختار الصحاح ص٥٤٤).

(٩) يزْرُونَ عليه إزراءَه: أي يعيبون عليه تهاونه وتقصيره. (لسان العرب ١٤/٣٥٦).

قد رجموا[1] فيه الظنون، وأحدقوا[2] فيه العيون، وتربَّصوا به ريبَ المنون[3] ﴿فتربَّصوا إنَّا مَعَكُمْ مُتربِّصون﴾[4]. ﴿قالَ ربِّ احْكُمْ بالحقِّ وَرَبُّنا الرَّحمنُ المستعانُ على ما تَصِفُونَ﴾[5].

نحــن وإياكــم نمــوت، فمــا
أفـلح عنــد الـحســاب من ندمــا[6]

والمقصود: أنَّ هذه الهجرة النبوية شأنها شديد. وطريقها على غيرِ المُعتادِ بعيد.

بعــيد على كســلان أو ذِي مَلالــةٍ[7]
وأمَّــا[8] على الـمشتــاق فهــو قريب[9]

ولَعَمْرُ الله، ما هي إلا نورٌ يتلألأ، ولكن أنت ظلامه، وبدرٌ أضاءَ مشارق الأرض ومغاربها، ولكن أنت غيمه وقتامه[10]. ومنهلٌ عَذْبٌ صافٍ وأنت كدره،

(1) رجَموا: أي تَكَلَّموا بالظن. (مختار الصحاح ص٢٣٦).

(2) التحديقُ: شِدَّةُ النظرِ بالحَدَقة وهي السواد المستدير وسط العين. (لسان العرب ١٠/٣٩).

(3) هذا اقتباس من قوله تعالى: ﴿أم يقولون شاعِرٌ نتربَّصُ به ريب المنون﴾ الآية ٣٠ من سورة الطور.

(4) الآية ٥٢ من سورة التوبة.

(5) الآية ١١٢ من سورة الأنبياء.

(6) لم أجد اسم قائل هذا البيت بعد البحث.

(7) الملالةُ: السأم. انظر (مختار الصحاح ص٦٣٤).

(8) في الأصل: «أما» وعلى هذا يختل وزن البيت والصواب ما أثبتناه «وأما» كما في ديوان جميل.

(9) قائلُ هذا البيت جميل بثينة شاعر الغزل المشهور، وقد جاء البيت في ديوانه هكذا:

بعــيدٌ على من ليس يطلب حاجــة وأمَّــا على ذي حاجــةٍ فقــريب

(انظر ديوان جميل بثينة ص١٣).

(10) القَتَامُ: الغُبَار. (مختار الصحاح ص٥٢١).

ومبتدأ لخيرٍ عظيم ولكن لَيسَ عندكَ خبَرُهُ.

فاسمع الآن شأْنَ هذه الهجرة والدلالة عليها، وحاسب ما بينك وبين الله، هل أنتَ من المُهاجرينَ لها، أو المهاجرين إليها؟.

تعريف الهجرة إلى الرسول ﷺ:

فحدُّ هذه الهجرة: سَفَرُ النفسِ في كلِّ مسألةٍ من مسائل الإيمان، ومنزل من منازلِ القلوب، وحادِثةٍ من حوادثِ الأحكام إلى معدن الهدى، ومنبع النور المتلقى من فم الصادق المصدوق الذي: **﴿ما يَنْطِقُ عن الهوى * إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحى﴾**[1] فَكُلُّ مسألةٍ طَلَعَتْ عليها شمس رسالتِهِ، وإلا فاقذفْ بها في بحر الظلمات، وكل شاهد عَدَّلَهُ هذا المُزكي وإلا فَعدَّه من أهل الريب والتهمات، فهذا حد هذه الهجرة[2].

فما للمقيم في مدينةِ طبعهِ وعوائدهِ، القاطن في دار مرباه ومولده، القائل: إنَّا على طريقة آبائنا سالكون، وإنَّا بحبلهم مُتمسِّكون، وإنَّا على آثارهم مقتدون، ولهذه الهجرة التي كلَّت[3] عليهم، واستند في طريقة نجاحه وفلاحه إليهم، مُعتذراً بأنَّ رأيهم خَيْرٌ من رأيه لنفسه، وأن ظنونهم وآراءهم أوثق من ظنه وحَدْسه[4] ولو فتشت عن مصدر مقصود هذه الكلمة لوجدتها صادرة عن الإخلاد إلى أرض البطالة، متولدة بين الكسل وزوجه الملالة.

هجرتان:

والمقصود: أنَّ هذه الهجرة فرض على كل مسلم وهي مقتضى «شهادة أن

---

(١) الآيتان ٣-٤ من سورة النجم.

(٢) لابن القيم كلام لطيف حول الهجرة إلى رسول الله ﷺ انظره في كتاب طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٧.

(٣) كَلَّتْ: ثَقُلَتْ. (لسان العرب ١١/٥٩٤).

(٤) الحدْسُ: الظَّنُّ والتخمين يقال هو يَحدِسُ أي يقول شيئاً برأيه. (مختار الصحاح ص١٢٦).

محمداً رسول الله ﷺ». كما أن الهجرة الأولى مقتضى «شهادة أن لا إله إلا الله». وعن هاتين الهجرتين يسأل كل عبد يوم القيامة، وفي البرزخ، ويطالب بها في الدنيا ودار البرزخ ودار القرار.

قال قتادة[1]: «كلمتان يُسألُ عنهما الأولون والآخرون: ماذا كُنتُم تَعبدون وماذا أَجَبْتُم المرسلين؟».

وهاتان الكلمتان هما مضمون الشهادتين وقد قال تعالى: ﴿فلا وَرَبِّكَ لا يؤمنون حتى يُحكِّموك فيما شَجَر بينهم[2] ثم لا يجدوا في أنفُسهم حَرجاً ممَّا قضيت ويُسلِّموا تسليماً﴾[3]. فأَقْسَم سبحانه بأجلّ مقسم به ـ وهو نفسه عزَّ وجلَّ ـ على أن لا يثبت لهم الإيمان ولا يكونون من أهله، حتى يُحكِّموا رسولَ الله ﷺ في جميعِ مواردِ النزاع في جميع أبواب الدين.

فإنَّ لفظة «ما» من صيغ العموم، فإنها موصلة تقتضي نفي الإيمان أو يوجد تحكيمه في جميع ما شجر بينهم.

ولم يقْتَصِر على هذا حتى ضَمَّ إليه انشراح صدورهم بحكمه، حيث لا يجدون في أنفسهم حَرَجاً ـ وهو الضيقُ والحصرُ ـ من حكمه، بل يقبلوا حكمه بالانشراح، ويقابلوه بالتسليم لا أنهم يأخذونه على إغماض، ويشربونه على قذىً، فإنَّ هذا منافٍ للإيمان، بَلْ لا بُدَّ أن يكون أخذه بقبولٍ ورضا وانشراح صدر.

ومتى أرادَ العَبْدُ أن يعلم هذا فلينظر في حاله، ويطالع قلبه عند ورود حكمه على خلافِ هواه وغرضه، أو على خلاف ما قلد فيه أسلافه من المسائل الكبار

---

(١) هو قتادة بن دَعامة بن قتادة السَّدوسي، أبو الخطاب البصري، ثقة، ثبْت، يقال وُلد أكمه، وهو رأس الطبقة الرابعة، مات سنة ١١٧هـ. (تقريب التهذيب ص٤٥٣).

(٢) شَجَرَ بينهم: تنازعوا فيه واختلفوا. (لسان العرب ٣٩٦/٤).

(٣) الآية ٦٥ من سورة النساء.

وما دونها: ﴿بل الإنسانُ على نفسهِ بصيرةٌ * ولو ألْقى معاذِيرهُ﴾[1].

فسبحـان الله! كم من حزازةٍ في نفـوسِ كثيرٍ من النـاس من كثير من النصوص وبودهم أن لو لم ترد! وكم من حرارةٍ في أكبادهم منها! وكم من شجى في حلوقهم منها ومن موردها! ستبدو لهم تلك السرائر بالذي يسوء ويخزى يوم تبلى السرائر[2]!.

ثم لم يقتصر سُبحـانَهُ على ذلك حتَّى ضمَّ إليه قوله تعالى: ﴿ويُسلِّموا تَسليماً﴾[3]، فذكر الفعل مؤكداً بمصدره القائم مقام ذكره مرتين. وهو التسليمُ والخضوع له والانقياد لما حكم به طَوْعاً ورِضاً، وتسليماً، لا قهراً ومُصابرة كما يسلم المقهور لمن قهره كرهاً، بل تسليم عبد مطيع لمولاه وسيده الذي هو أحب شيء إليه، يعلم أن سعـادته وفلاحه في تسليمه إليه، ويعلم بأنه أَوْلى به من نفسه، وأبرّ به منها وأقدر على تخليصها. فمتى علم العبد هذا من رسول الله ﷺ واستسلم له، وسلم إليه: انقادت له كل علة في قلبه ورأى أن لا سعادة له إلا بهـذا التسليم والانقياد. وليس هذا مما يحصل معناه بالعبارة، بل هو أمر انشق القلب واستقر في سويدائه[4] لا تفي العبارة بمعناه. ولا مطمع في حصوله بالدعوى والأماني.

وَكُـلٌّ يَدَّعـي وصـلاً لِليلى
ولَـيلى لا تُقِـرُّ لهُـم بذاكـا[5]

الحب بين العلم والحال:

وفرق بين علم الحب وحال الحب. فكثيراً ما يشتبه على العبد علم الشيء

---

(١) الآيتان ١٤-١٥ من سورة القيامة.

(٢) تُبلى السرائر: أي تظهر وتبدو ويبقي السر علانية والمكنون مشهوراً (تفسير ابن كثير ٤/٤٩٩).

(٣) الآية ٦٥ من سورة النساء.

(٤) أي في وسطه.

(٥) البيت في ديوان الصبابة ص٤ ولم يُعْزَ لقائلٍ معين.

بحاله ووجوده، وفرق بين المريض العارف بالصحة والاعتدال، وهو مثخن بالمرض، وبين الصحيح السليم وإن لم يحسن وصف الصحة والعبارة عنها. وكذلك فرق بين وصف الخوف والعلم به وبين حاله ووجوده.

التأكيد على اتباع الرسول ﷺ:

وتأمل تأكيده سبحانه لهذا المعنى المذكور في الآية بوجوه عديدة من التأكيد: أولها: تصديرها بتضمن المقسم عليه للنفي وهو قوله: «لا يؤمنون» وهذا منهج معروف في كلام العرب، إذا أقسموا على شيء منفي صدروا جملة القسم بأداة نفي مثل هذه الآية.

ومثل ما في قول الصديق[1] رضي الله عنه: «لا ها الله، لا يَعْمِدُ إلى أسدِ الله يقاتل عن رسول الله فيعطيك سَلَبه»[2].

وقول الشاعر[3]:

فلا وأبيك ابنة العامريّ لا يدعى القوم أنّى أفر[4]

---

(١) هو أبو بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ.

(٢) رواه البخاري ٨/٣٦-٣٧، ومسلم في كتاب الجهاد والسير باب استحقاقات القاتل سلب القتيل ٣/١٣٧١، وأبو داود ٣/١٦١، وأحمد في مسنده ٥/٣٠٦، ومالك في الموطأ ٢/٤٥٤. والضمير في (لايعمد) عائد إلى النبي ﷺ. أي لا يقصد عليه السلام إلى إبطال حق أسد من أسود الله يقاتل في سبيله، وهو أبو قتادة، بإعطاء سلبه إياك.

(٣) هو الشاعر المشهور، امرؤ القيس بن حُجْر بن عمرو الكِنْدي، أحد شعراء المعلقات، اشتهر بلقبه واختلف المؤرخون في اسمه، فقيل: حُنْدج وقيل: ميلكة، وقيل: عدي، كان أبوه ملك أسد وغطفان، وأمه أخت المهلهل الشاعر. توفي في سنة ٨٠ قبل الهجرة. (الشعر والشعراء ص٥٢، والأعلام ٢/١١).

(٤) البيت في ديوان امرىء القيس ص٦٨، وخزانة الأدب للبغدادي ١/٣٧٤. ومعنى البيت: «وأبيك يا ابنة العامري لا تأخرتُ عن نزال أعدائي لئلا يدَّعوا عليَّ الفرار من =

وقال الآخر[1]:

فـلا واللهِ لا يُلقـى لمـا بـي
ولا لِلِمـا بهـم أبـداً دواء[2]

وهذا في كَلامهم أكثر من أن يُذكر.

•تأمل جمل القسم التي في القرآن المُصدَّرة بحرف النفي كيف تجد المقسم عليه منفياً ومتضمناً للنفي؟ ولا يخرم[3] هذا قوله تعالى: **فلا أُقسِمُ بمواقعِ النجوم * وإنَّه لقسم لو تعلمونَ عَظِيم * وإنَّه لقُرآن كريم**﴾[4]. فإنَّه لما كان المقصودُ بهذا القسم نفي ما قاله الكفار في القرآن من أنه شعر، أو كَهانة[5] أو أساطير[6] الأولين، صدر القول بأداة النفي. ثم أثبت له ما قالوه. فتضمنت الآية أنه ليس الأمر كما يزعمون، ولكنه قرآن كريم.

= القتال» وابنة العامري هي فاطمة بنت العبيد بن ثعلبة بن عامر العذرية وهي التي يقول لها:

أفـاطـم مهـلاً بعض هذا التـدلـل وإنْ كنتِ قد أزمعت صرمي فأجملي

(انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٦٣).

(١) هو مسلم بن معبد بن طوّاف الوالبي، من نسل والبة بن الحارث الأسدي، شاعر إسلامي اشتهر في العصر الأموي. (انظر خزانة الأدب ٢/٣١٢، والأعلام ٧/٢٢٣).

(٢) انظر البيت في خزانة الأدب ٢/٣٠٨، ٥/١٥٧، وشواهد المغني للسيوطي ١/٥٠٥، وهو من قصيدة لمسلم الوالبي أولها:

بكـت إبـلي وحُـقَّ لهـا البـكـاء وفـرَّقـهـا الـمـظالـمُ والـعَـداء

وفي البيت شاهد حيث أكَّد اللام الأولى باللام الثانية بدون ذكر مجرور الأولى والقياس لما لمابي.

(٣) يخرم: يُنقص.

(٤) الآيات ٧٥-٧٧ من سورة الواقعة.

(٥) الكاهن: هو الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ويدَّعي معرفة الأسرار، وقد كان في العرب كَهَنة كشِقٍّ وسطيح وغيرهما. (انظر لسان العرب ١٣/٣٦٣).

(٦) الأساطير: الأباطيل جمع أُسطورة. (مختار الصحاح ص٢٩٨).

ولهـذا صَرَّح بالأمـرين: النَّفي والإثبـات مثـل قولـه تعالى: ﴿فلا أُقسم بالخُنَّس[1] * الجوارِ الكُنَّس [2] * والليلِ إذا عَسْعَسَ[3] * والصُّبحِ إذا تَنَفَّس[4] * إنَّه لقول رسولٍ كريم * ذِي قوَّةٍ عند ذي العرشِ مَكينٍ[5] * مُطاعٍ ثَمَّ أمين * وما صَاحِبكم بمجنون ولقد رآه بالأُفق المبين * وما هو على الغيبِ بضنين * وما هو بقولِ شيطانٍ رجيم﴾[6].

وكـذلـك قولـه: ﴿لا أُقسم بيـومِ القيامةِ * ولا أُقسم بالنَّفس اللَّوامَة * أيَحْسبُ الإنسانُ ألَّن نجمع عِظامَهُ * بَلى قَادرِينَ على أن نُسوِّي بنانَهُ﴾[7].

والمقصود: أن افتتاح هذا القسم بأداة النفي يقتضي تقوية المقسم عليه، وتأكيده وشدة انتفائه.

وثانيها: تأكيده بنفس القسم.

وثالثها: تأكيده بالمقسم به[8] وهو إقسامه بنفسه لا بشيء من مخلوقاته، وهو سبحانه يقسم بنفسه تارة وبمخلوقاته تارة.

ورابعها: تأكيده بانتفاء الحَرَج[9]، وهو وجود التسليم.

---

(١) الخُنَّس: الكواكب التي تخنس بالنهار، وقيل الخُنَّس هي زُحَل والمشتري والمرِّيخ لأنها تخنسُ في مجراها أي ترجع. (المفردات في غريب القرآن ص١٥٩).

(٢) الكُنَّس: الكواكب. لأنها تكنس في المغيب أي تستتر. (مختار الصحاح ص٥٨٠).

(٣) عَسْعَس: أقبل ظلامه أو أدبر وذلك في مبدأ الليل ومنتهاه. (تفسير ابن كثير ١/ ٤٨٠، ومفردات الراغب ص٣٣٤).

(٤) تنفَّس: أي أضاء. (تفسير ابن كثير ١/ ٤٨٠).

(٥) مكين: أي متمكن ذو قَدْرٍ ومنزلة. (المفردات للراغب ص٤٧١).

(٦) الآيات ١٥ـ٢٥ من سورة التكوير.

(٧) الآيات ١ـ٤ من سورة القيامة.

(٨) وهو قوله: ﴿وربِّك﴾.

(٩) حيث قال: ﴿ويُسلِّموا تسليماً﴾.

وخامسها: تأكيد الفعل بالمصدر[1]، وما هذا التأكيد إلَّا لشدَّة الحاجة إلى هذا الأمر العظيم، وإنه مما يعتنى به ويقرر في نفوس العباد بما هو من أبلغ أنواع التقرير.

حب الرسول ﷺ:

وقال تعالى: ﴿النبيُّ أولى بالمؤمنينَ من أنفسهم﴾[2]، وهو دليل على أن من لم يكن الرسول أولى به من نفسه فليس من المؤمنين، وهذه الأولوية تتضمن أموراً:

منها: أن يكون أحبَّ إلى العبد من نفسه[3]؛ لأن الأولوية أصلها الحب، ونفس العبد أحب له من غيره، ومع هذا يجب أن يكون الرسول أولى به منها، وأحب إليه منها فبذلك يحصل له اسم الإيمان.

ويلزمُ من هذه الأولـوية والمحبـةِ كمال الانقياد والطاعة والرضا والتسليم وسائر لوازم المحبة، من الرضا بحكمه والتسليم لأمره وإيثاره على ما سواه.

ومنها: أن لا يكون للعبد حُكمٌ على نفسهِ أصلاً، بل الحكم على نفسه للرسول ﷺ يحكم عليها أعظم من حكم السيد على عبده أو الوالد على ولده، فليس له في نفسه تصرف قط إلا ما تصرف فيه الرسول الذي هو أولى به منها. فيا عجبـاً كيف تحصل هذه الأولوية لعبد قد عزَلَ ما جاء به الرسول ﷺ عن منصبِ التحكيمِ، ورضيَ بحكم غيره، واطمـأنَّ إليه أعظم من اطمئنانه إلى

---

(١) حيث أكَّد الفعل «يُسلموا» بالمصدر «تسليماً».

(٢) الآية ٦ من سورة الأحزاب.

(٣) كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده ج٤ ص٣٣٦: «عن زهرة بن معبد عن جده قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فقال: «والله لأنت أحبّ إليّ من كل شيء إلا نفسي» فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحـدكم حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه» قال: «فأنت الآن والله أحبّ إليّ من نفسي» فقال رسول الله ﷺ: «الآن يا عمر»».

الـرسـول ﷺ، وزَعَمَ أنَّ الهُدى لا يُتلقى من مشكاته، وإنما يُتلقى من دلالة العقول، وأنَّ الذي جاء به لا يفيد اليقين، إلى غير ذلك من الأقوال التي تتضمن الإعـراض عنه، وعما جاء به، والحوالة في العلم النافع إلى غيره، ذلك هو الضلال البعيد، ولا سبيل إلى ثبوت هذه الأولوية إلا بعزل كل ما سواه، وتوليته في كل شيء وعرض ما قاله كل أحد سواه على ما جاء به، فإنْ شهد له بالصحة قَبِلَه، وإنْ شهد له بالبطلان رَدَّه. وإن لم تتبين شهادته له لا بصحة ولا ببطلان جعله بمنزلة أحاديث أهل الكتاب ووقفه حتى يتبين أي الأمرين أولى به؟.

فمن سلك هذه الطريقة استقام له سَفَرُ الهجرة، واستقام له عِلمُهُ وعمله، وأقبلت وجوه الحق إليه من كل جهة.

أدعياء المحبة:

ومِنَ العجبِ أنْ يدَّعي حصولَ هذه الأولوية والمحبة التامة مَنْ كانَ سعيُهُ واجتهـادُهُ ونَصبُهُ[1] في الاشتغال بأقوال غيره وتقريرها، والغضب والمحبة لها والرضا بها والتحاكم إليها، وعرض ما قاله الرسول عليها، فإن وافقها قبله، وإن خالفها التمس وجوه الحيل، وبالغ في رده ليًّا[2] وإعراضاً.

الإعراض عن الرسول ﷺ:

كمـا قال تعـالى: ﴿وإنْ تَلْوُوا أو تُعـرضـوا فإنَّ اللهَ كانَ بمـا تعملون خبيراً﴾[3]. وقد اشتملت هذه الآية على أسرارٍ عظيمةٍ يَجِبُ التنبيهُ على بعضها لشدة الحاجة إليها.

قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا كونوا قَوَّامين بالقِسْطِ شهداءَ لله ولو على أنفسكم أو الوالِدَينِ والأقربين إنْ يَكُنْ غنياً أو فقيراً فاللهُ أولى بهما فلا تَتَّبعوا

---

(١) النَّصَبُ: التعب. (مختار الصحاح ص٦٦١).

(٢) الليّ: الباطل. (لسان العرب ١٥/٢٦٧).

(٣) الآية ١٣٥ من سورة النساء.

الهوى أنْ تعدِلوا وإن تَلوُوا أو تُعرِضوا فإنَّ اللهَ كان بما تعملون خبيراً﴾[1].

فأمر سُبحانَهُ بالقيام بالقسط وهو العدل في هذه الآية، وهذا أمرٌ بالقيام به في حق كل أحد عدواً كان أو ولياً وأحق ما قام له العبد بقصد الأقوال والآراء والمذاهب؛ إذْ هي متعلقةٌ بأمر الله وخبره.

فالقيام فيها بالهوى والمعصية مُضادٌ لأمرِ اللهِ، منافٍ لما بُعث به رسوله. والقيام فيها بالقسط وظيفةُ خلفاءِ الرسول في أُمته وأمنائه بين أتباعه. ولا يستحقُّ اسمَ الأمـانـة إلا من قام فيهـا بالعدلِ المحض[2] نصيحةً لله ولكتابه ولرسوله ولعباده. وأولئك هم الوارثون حقاً، لا من يجعل أصحابه ونحلته ومذهبه معياراً على الحق وميزانـاً له، يعـادي من خالفـه ويوالي من وافقـه بمجـرد موافقتـه ومخالفته، فأين هذا من القيام بالقسط الذي فرضه الله على كُلِّ أَحَدٍ؟ وهو في هذا الباب أعظم فرضاً وأكبر وجوباً؟.

شهداء الله:

ثم قال: **﴿شهداء لله﴾**[3] الشاهد هو المخبر؛ فإن أخبر بحق فهو شاهد عدل مقبول، وإن أخبر بباطل فهو شاهدُ زور.

وأمر تعالى أن يكون شهيداً له مع القيام بالقسط وهذا يتضمن أن تكون الشهادة بالقسط وأن تكون لله لا لغيره.

وقال في الآية الأخرى: **﴿كُونوا قَوَّامِين للهِ شُهداءَ بالقسط﴾**[4].

فتضمنت الآيتان أموراً أربعة:

---

(١) الآية ١٣٥ من سورة النساء.

(٢) المحْض: الخالص. (مختار الصحاح ص٦١٦).

(٣) الآية ١٣٥ من سورة النساء.

(٤) الآية ٨ من سورة المائدة.

أحدها: القيام بالقسط.

الثاني: أن يكون لله.

الثالث: الشهادة بالقسط.

الرابع: أن تكون لله.

واختصَّت آيةُ «النساء» بالقِسْط والشهادة لله، وآية «المائدة» بالقيام لله والشهادة بالقسط لسرٍ عجيب من أسرار القرآن، ليس هذا موضع ذكره[1].

ثم قال تعالى: ﴿ولَوْ عَلى أنفسِكُم أَو الوالِدَينِ والأقربين﴾[2] فأمر سبحانه أنْ يُقام بالقسط ويشهد على كل أحد ولو كان أحبَّ الناس إلى العبد فيقوم بالقسط على نفسه ووالديه اللذين هما أصله، وأقاربه الذين هم أخص به والصديق من سائر الناس، فإنْ كان ما في العبد من محبة لنفسه ولوالديه وأقربيه يمنعه من القيام عليهم بالحق، ولا سيما إذا كان الحق لمن يبغضه ويعاديه قبلهم فإنَّه لا يقوم به في هذه الحال إلا من كان اللهُ ورسوله أحبَّ إليه من كل ما سواهما. وهذا يمتحن به العبد إيمانه فيعرف منزلة الإيمان من قلبه ومحله منه، وعكس هذا عدلُ العبد في أعدائه ومَنْ يجفوه، فإنَّه لا ينبغي أن يحمله بغضه لهم أن يحيف[3] عليهم، كما لا ينبغي أن يحمله حبه لنفسه ووالديه وأقاربه على

---

(١) وهذا السر كما قال الغرناطي في ملاك التأويل (١/٢٢١) هو: «أن الآيات المتصلة بآية سورة النساء مبنية على الأمر بالعدل والقسط. قال تعالى: ﴿من يعمل سوءاً يُجز به﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ويستفتونك في النساء﴾ ثم قال: ﴿وأن تقوموا لليتامى بالقسط﴾ وتوالت الآي بعد على هذا المعنى فقدم قوله بالقسط ليناسب ما ذُكر.

وأما آية المائدة فثبت قبلها الأمر بالطهارة ثم تذكيره سبحانه بتذكر نِعَمه والوقوف مع ما عهد به إلى عباده، والأمر بتقواه فناسب قوله: ﴿كونوا قوَّامين لله﴾ ثم أُتبع بما بُني على ذلك من الشهادة بالقسط، فتأمل ما بُني على هذه، وما بُني على آية النساء يتضح لك ما قلته، والله أعلم بما أراد».

(٢) الآية ١٣٥ من سورة النساء.

(٣) أي يظلم ويجور. (مختار الصحاح ص١٦٥).

أن يترك القيام عليهم بالقسط، فلا يدخله ذلك البغض في باطل، ولا يقصر به هذا الحب عن الحق. كما قال بعض السلف: «العادل هو الذي إذا غضب لم يدخله غضبه في باطل، وإذا رضي لم يخرجه رضاه عن الحق».

فاشتملت الآيتان على هذين الحكمين: وهما القيام بالقسط والشهادة به على الأولياء والأعداء.

ثم قال تعالى: ﴿إنْ يكُنْ غنياً أو فقيراً فاللهُ أولى بهما﴾[1] منكم، هو ربهما ومولاهما وهما عبيده، كما أنكم عبيده فلا تحابوا غنياً لغناه، ولا فقيراً لفقره فإنَّ الله أولى بهما منكم.

وقد يُقال فيه معنى آخر أحسن من هذا وهو أنهم ربما خافوا من القيام بالقسط وأداء الشهادة على الغني والفقير.

أمَّا الغنيُّ فخوفاً على ماله، وأمَّا الفقيرُ فلإعدامه وأنَّه لا شيء له، فتتساهلُ النفوسُ في القيام عليه بالحق فقيل لهم: والله أولى بالغني والفقير منكم، أعلم بهذا وأرحم بهذا، فلا تتركوا أداءَ الحق والشهادةِ على غني ولا فقير.

ثم قال تعالى: ﴿فلا تتَّبعوا الهوى أنْ تعدِلُوا﴾[2].

نهاهم عن اتباع الهوى الحاملِ على تركِ العدل.

وقوله تعالى: ﴿أنْ تعدلوا﴾ منصوب الموضع لأنه مفعول لأجله وتقديره عند البصريين كراهية أنْ تعدلوا أو حَذَرَ أنْ تعدِلوا، فيكون اتباعكم للهوى كراهية العدل أو فراراً منه وعلى قول الكوفيين التقدير أن لا تعدلوا، وقول البصريين أحسن وأظهر.

---

(١) الآية ١٣٥ من سورة النساء.

(٢) الآية ١٣٥ من سورة النساء.

اللَّيُّ والإعراض:

ثُمَّ قالَ تعالى: ﴿وإنْ تَلْوُوا أو تُعرِضوا فإنَّ الله كان بما تعملون خبيراً﴾[1].
ذكر سبحانه السببين الموجبين لكتمان الحق، محذراً منهما ومتوعداً عليهما. أحدهما: الَّليُّ، والآخر: الإعراض، فإنَّ الحق إذا ظَهَرت حجته ولم يجدْ مَنْ يروم دفْعَهـا طريقـاً إلى دَفْعِها، أعْرَض عنها وأَمْسك عن ذكرها فكان شيطاناً أخرس، وتارة يلويها ويحرفها؛

الَّليُّ: مثـال الفتل وهو التحريف. وهو نوعان: لَيٌّ في اللفظ، ولَيٌّ في المعنى. فاللَيُّ في اللفظ أن يلفظ بها على وجه لا يستلزم الحق، إما بزيادة لفظة أو نقصانها أو إبدالها بغيرها. ولَيٌّ في كيفية أدائِها وإيهام السامع لفظاً وإرادة غيره كما كانَ اليهودُ يلوونَ ألسنتهم بالسلام على النبي ﷺ[2] وغيره فهذا أحدُ نوعي اللَيّ.

والنوع الثاني منه: لَيُّ المعنى: وهو تحريفه وتأويلُ اللفظِ على خلافِ مراد المتكلم، وبجهالة ما لم يُرِدْه أو يسقط منه لبعض المراد به، ونحو هذا من لَيّ المعاني، فقال تعالى: ﴿وإنْ تَلْووا أو تُعرِضوا فإنَّ الله كَانَ بما تعملون خبيراً﴾[3].

ولما كان الشاهد مطالباً بأداء الشهادة على وجهها فلا يكتمها ولا يغيرها كان

(١) الآية ١٣٥ من سورة النساء.

(٢) إشارة لقول اليهود «السَّام» بمعنى «الموت» عند ردّهم السلام وقد ورد ذلك في أحاديث صحيحة منها حديث عائشة: «قالت دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السَّام عليكم. قالت عائشة ففهمتها فقلت: وعليكم السَّامُ واللعنة. قالت: فقال رسول الله ﷺ: مهلًا يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله. فقلت يا رسول الله: أولم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: قد قلت وعليكم». رواه البخاري في كتاب الأدب باب الرفق في الأمر كله. ١٠/٤٤٩ ومسلم في كتاب السلام باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم ١٧٠٦/٤ وغيرهما.

(٣) الآية ١٣٥ من سورة النساء.

الإعراض نظيرَ الكتمان. والليُّ نظيرُ تغييرها وتبديلها، فتأمل ما تحت هذه الآية من كنوز العلم.

والمقصود: أن الواجب الذي لا يتم الإيمان، بل لا يحصل مسمى الإيمان إلا به، مقابلة النصوص بالتلقي والقبول والإظهار لها ودعوة الخلق إليها، ولا تقابل بالاعتراض تارة وباللي أخرى.

الخيرة لله:

وقال تعالى: ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قَضَى اللهُ ورسولُهُ أمراً أَنْ يكُونَ لهم الخِيرةُ من أَمرِهِمْ﴾[1]. فَدَلَّ هذا على أنَّهُ إذا ثَبَت لله ورسوله في كُلِّ مسألةٍ من المسائل حكمٌ طلبيٌّ أو خبريٌّ، فإِنَّهُ ليسَ لأَحدٍ أن يتخيَّرَ لنفسه غيرَ ذلكَ الحكم فيذهب إليه، وأنَّ ذلِكَ لَيسَ لمؤمن ولا مؤمنة أصلاً، فدلَّ على أنَّ ذلك منافٍ للإيمان.

موقف الأئمة من السنة:

وقد حَكَى الشافعيُّ[2] رضي الله عنه إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد، ولم يسترب أحدٌ من أئمة الإسلام في صحة ما قاله الشافعي رضي الله تعالى عنه.

فإنَّ الحجةَ الواجب اتباعها على الخلق كافة إنما هو قول المعصوم الذي

---

(١) الآية ٣٦ من سورة الأحزاب.

(٢) هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي، أبو عبيد الله: أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه نسبة الشافعية كافة، ولد في غزة بفلسطين سنة ١٥٠هـ وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين وزار بغداد مرتين وقصد مصر سنة ١٩٩هـ فتوفي بها سنة ٢٠٤هـ كان ذكياً مفرطاً له تصانيف كثيرة منها كتاب «الأم» في الفقه، و«المسند» في الحديث و«الرسالة» في أصول الفقه و«أحكام القرآن»، و«السنن» و«السبق والرمي» وغيرها. (انظر ترجمته في الأعلام ٢٦/٦، تقريب التهذيب ص٤٦٧، تهذيب التهذيب ٢٥/٩).

لا يَنطقُ عن الهوى، وأمَّا أقوالُ غيره فغايتها أن تكون سائغة الاتباع، فضلاً عن أن يعارض بها النصوص وتقدم عليها، عياذاً بالله من الخذلان.

وقال تعالى: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحْذَروا، فإن تولَّيتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغُ المبين﴾[1].

فأخبر سبحانه أن الهداية في طاعة الرسول لا في غيرها، فإنه معلق بالشرط، فينتفي بانتفائه وليس هذا من باب دلالة المفهوم، كما يغلط فيه كثير من الناس ويظن أنه محتاج في تقريره الدلالة منه لا تقرير كون المفهوم حجة. بل هذا من الأحكام التي ترتَّبت على شروط وعلقت فلا وجود لها بدون شروطها، إذ ما علق على الشرط فهو عدم عند عدمه، وإلا لم يكن شرطاً له.

إذا ثبت هذا فالآيةُ نصٌّ على انتفاءِ الهداية عند عدم طاعته.

وفي إعادة الفعل في قوله تعالى: ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾[2] دون الاكتفاء بالفعل الأول سرٌّ لطيف، وفائدة جليلة سنذكرها عن قريب إن شاء الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿فإن تولَّوا فإنَّما عليه ما حُمِّل﴾[3] الفعل للمخاطبين، وأصله فإن تتولوا فحُذِفَتْ إحدى التاءين تخفيفاً.

والمعنى: أنه قد حمل أداء الرسالة وتبليغها، وحملتم طاعته والانقياد له والتسليم. كما ذكره البخاري في صحيحه عن الزهري[4] قال: «مِنَ اللهِ البيان[5]

(١) الآية ٩٢ من سورة المائدة. (٢) الآية ٩٢ من سورة المائدة.

(٣) الآية ٥٤ من سورة النور.

(٤) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زُهرة بن كلاب القرشي، الزهري، أبو بكر، الفقيه الحافظ، متفق على جلالته وإتقانه، وهو من رؤوس الطبقة الرابعة مات سنة ١٢٥هـ وقيل قبل ذلك بسنة أو سنتين. (تقريب التهذيب لابن حجر ص٥٠٦).

(٥) في صحيح البخاري: «الرسالة».

وعلى الرسول[1] البلاغ وعلينا التسليم»[2].

فإن تركتم أنتُم ما حملتموه من الإيمان والطاعة فعليكم لا عليه؛ فإنه لم يحمل إيمانكم وإنما حمل تبليغكم، وإنما حمل أداء الرسالة إليكم. ﴿وإنْ تُطيعوه تهتدوا وما على الرَّسول إلاَّ البلاغ المبين﴾[3] لَيْسَ عليه هُداهُم وتوفيقهم.

وقال تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكُم فإنْ تنازعتم في شيءٍ فردُّوه إلى اللهِ والرَّسولِ إنْ كنتم تؤمنون بالله واليومِ الآخرِ ذلِكَ خيرٌ وأحسنُ تأويلاً﴾[4].

النداء بالإيمان:

فأَمَرَ سبحانه بطاعتِهِ وطاعةِ رسوله، وافتتح الآية بالنِّداء باسمِ الإيمانِ المُشعِرِ بأنَّ المطلوب منهم من موجبات الاسم الذي نودوا به وخوطبوا به، كما يقال: يا من أنعم اللهُ عليه وأغناه من فضله أَحْسِنْ كما أحسَنَ اللهُ إليك ويا أيها العالِمُ عَلِّم الناس ما ينفعهم، ويا أيُّها الحاكِمُ احْكُمْ بالحقِّ ونظائره.

ولهذا كثيراً ما يقع الخطابُ في القرآنِ بالشرائع كقوله تعالى:

﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا كُتِبَ عليكم الصِّيامُ﴾[5].
﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا إذا نُودي للصلاة﴾[6].
﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا أوفوا بالعقودِ﴾[7].

---

(١) في صحيح البخاري: «رسول الله».

(٢) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري ج١٣ ص٥٠٣.

(٣) الآية ٥٤ من سورة النور.

(٤) الآية ٥٩ من سورة النساء.

(٥) الآية ١٨٣ من سورة البقرة.

(٦) الآية ٩ من سورة الجمعة.

(٧) الآية ١ من سورة المائدة.

ففي هذا إشارةٌ إلى أنكم إنْ كنتم مؤمنين فالإيمان يقتضي منكم كذا وكذا فإنَّه من موجبات الإيمان وتمامه.

ثم قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرَّسولَ وأولي الأمر منكم﴾[1] فقرن بين طاعة اللهِ والرسول وطاعة أولي الأمر، وسلط عليهما عاملاً واحداً[2]. وقد كان ربما يسبق إلى الوهم أنَّ الأمر يقتضي عكس هذا، فإنه من يُطِعِ الرسول فقد أطاع الله، ولكن الواقع هنا في الآية المناسب.

وتحته سرٌّ لطيفٌ وهو دَلالته على أنَّ ما يأمر به رسوله يجب طاعته فيه، وإنْ لم يكُنْ مأموراً به بعينه في القرآن طاعة الرسول مفردة ومقرونة. فلا يتوهم متوهم أنَّ ما يأمر به الرسول إن لم يكن في القرآن وإلا فلا تجب طاعته فيه. كما قال النبيُّ ﷺ: «يوشكُ رجل شبعان متَّكىء على أريكته[3] يأتيه الأمرُ من أمْري فيقول: بيننا وبينكم كتابُ الله تعالى، ما وجدنا فيه من شيء اتبعناه ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه»[4].

طاعة أولي الأمر:

أمَّا أولو الأمر فلا تجبُ طاعةُ أحدهم إلَّا إذا اندرجت تحت طاعة الرسول؛ لا طاعة مفردة مستقلة، كما صَحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «على المرء المسلم

---

(١) الآية ٥٩ من سورة النساء.

(٢) وهو الفعل «أطيعوا».

(٣) الأَريكَةُ: السَّريرُ في الحَجَلة من دونه ستر، ولا يُسمَّى منفرداً أريكة. وقيل هو كل ما اتُّكيء عليه من سرير أو فراشٍ أو مِنصَّة. (انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ج١ ص٤٠).

(٤) الحديث رواه ـ عن المقدام بن معد يكرب ـ أبو داود في كتاب السنة باب في لزوم السنة ٥/١٠ـ١١، والترمذي في كتاب العلم باب ما نهي عنه أن يُقال عند حديث النبي ﷺ ٥/٣٨ وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه» ورواه الترمذي عن أبي رافع وغيره ج٥ ص٣٧ وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، ورواه ابن ماجة في المقدمة باب تعظيم حديث رسول الله والتغليظ على من عارضه ١/٦ـ٧، والإمام أحمد في مسنده ٤/١٣١.

السمع والطاعة فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية الله تعالى فإذا أُمر بمعصية الله تعالى فلا سمع ولا طاعة»[1].

فتأمل كيفَ اقتضت إعادة هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[2] ولم يقل (وإلى الرسول) فإنَّ الرد إلى القرآن رَدٌّ إلى الله والرسول، فما حكم به الله تعالى هو بعينه حكم رسوله، وما يحكم به الرسول ﷺ هو بعينه حكم الله.

فإذا رَدَدْتُم إلى الله ما تنازعتُم فيه يعني كتابه فقد رددتموه إلى رسوله. وكذلك إذا رددتموه إلى رسوله فقد رددتموه إلى الله، وهذا من أسرار القرآن.

من هم أولو الأمر؟:

وقد اختلفت عن الإمام أحمد[3] رحمه الله تعالى في أولي الأمر، وعنه فيهم رحمه الله تعالى روايتان:

إحداهما: أنهم العلماء، والثانية: أنهم الأمراء.

---

(١) الحديث رواه: البخاري في كتاب الأحكام باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية ١٣/١٢١-١٢٢، ومسلم في كتاب الإمارة باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ١٤٦٩/٣، وأبو داود في كتاب الجهاد باب في الطاعة ٩٣/٣-٩٤، والترمذي في كتاب الجهاد باب ما جاء لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ٢٠٩/٤. وقال: «هذا حديث حسن صحيح» والنسائي في البيعة باب جزاء من أمر بمعصية فأطاع ١٦٠/٧، وابن ماجة في كتاب الجهاد باب لا طاعة في معصية الله ٩٥٦/٢، وأحمد في المسند ١٤٢/٢.

(٢) الآية ٥٩ من سورة النساء.

(٣) هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني المروزي، نزيل بغداد، أبو عبد الله، أحد الأئمة، ثقة، حافظ، فقيه، حجّة، وهو رأس الطبقة العاشرة، مات سنة ٢٤١هـ. (تقريب التهذيب ص٨٤).

والقـولان ثابتـان عن الصحابة في تفسير الآية[1]، والصحيحُ أنها متناولة للصنفين جميعاً، فإنَّ العلماء والأمراء ولاة الأمر الذي بعث الله به رسوله، فإنَّ العلمـاء ولاته حفظاً وبياناً وذبّاً[2] عنه وردّاً على من ألحد فيه وزاغ عنه. وقد وكلهم الله بذلكَ فقال تعالى: ﴿فإنْ يَكْفُر بها هَؤلاء فقَدْ وكَّلْنا بها قَوماً ليسوا بها بكافِرين﴾[3]. فيا لها من وكالةٍ أوجبتْ طاعتهم والانتهاء إلى أمرهم وكون الناس تبعاً لهم.

والأمراء ولاته قياماً وعنايةً وجهاداً وإلزاماً للناس به وأخذهم على يد من خرج عنه.

وهذان الصنفان هما الناس وسائر النوع الإنساني تبع لهما ورعية.

ثم قال تعالى: ﴿فإنْ تنازعتم في شيء فردُّوه إلى اللهِ والرسولِ إنْ كنتم تؤمنون باللهِ واليوم الآخر﴾[4].

وهذا دليلٌ قاطعٌ على أنَّه يجبُ ردُّ موارد النزاع في كل ما تنازع فيه الناس من الدين كُلِّه إلى اللهِ ورسوله لا إلى أحدٍ غير الله ورسوله، فمن أحال الرد على غيرهما فقد ضادَّ أمْرَ اللهِ، ومن دعا عند النزاع إلى حكم غير الله ورسوله فقد دعا بدعـوى الجـاهلية، فلا يدخـلُ العبـدُ في الإيمانِ حتى يرد كل ما تنازع فيه المتنازعون إلى الله ورسوله.

ولهذا قال تعالى: ﴿إنْ كنتُمْ تؤْمِنون باللهِ واليومِ الآخرِ﴾[5] وهذا مما ذكرنا آنفاً أنه شرطٌ ينتفي المشروط بانتفائه، فدَلَّ على أنَّ من حَكَّم غير الله ورسوله في موارد مقتضى النـزاع كان خارجـاً من مقتضى الإيمان باللهِ واليوم الآخر،

(١) انظر تفسير الطبري المجلد الرابع ج٥ ص١٤٧ـ١٥٠، وتفسير ابن كثير ١/٤٩١.

(٢) الذَّبُّ: المنعُ والدفْعُ. (مختار الصحاح ص٢١٩).

(٣) الآية ٨٩ من سورة الأنعام.

(٤) الآية ٥٩ من سورة النساء.

(٥) الآية ٥٩ من سورة النساء.

وحسبُكَ بهذه الآية العاصمة القاصِمة[1] بياناً وشفاءً، فإنها قاصمة لظهور المخالفين لها، عاصمة للمتمسكين بها المتمثلين ما أمرتْ به.

قال تعالى: ﴿ليهلك من هَلَكَ عن بيِّنة ويَحيى من حَيَّ عن بيِّنة وإنَّ الله لسميعٌ عليمٌ﴾[2]. وقد اتفق السلف والخلف على أن الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول هو الرد إليه في حياته، والرد إلى سنته بعد وفاته.

سعادة الدارين:

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ خيرٌ وأَحْسنُ تأويلاً﴾[3]. أي هذا الذي أمرتكم به من طاعتي وطاعة رسولي وأولياء الأمر ورد ما تنازعتم فيه إليَّ وإلى رسولي خير لكم في معاشكم ومعادكم، وهو سعادتكم في الدارين، فهو خيرٌ لكم وأحسنُ عاقبة. فدَلَّ هذا على أنَّ طاعة اللهِ ورسوله وتحكيم الله ورسوله هو سببُ السعادة عاجِلاً وآجلاً. ومن تدبَّر العالمَ والشرور الواقعة فيه عَلِمَ أنَّ كلَّ شرٍّ في العالم سببُهُ مخالفةُ الرسولِ والخروجُ عن طاعته، وكُلُّ خيْرٍ في العالم فإنَّهُ بسبب طاعة الرسول. وكذلك شرورُ الآخرة وآلامها وعذابُها إنما هو من مُوجباتِ مخالفةِ الرسول ومقتضياتها، فعاد شر الدنيا والآخرة إلى مخالفة الرسول وما يترتب عليه، فلو أنَّ النَّاس أطاعوا الرسولَ حَقَّ طاعته لم يكن في الأرض شرٌّ قط، وهذا كما أنه معلُوم في الشرور العامة والمصائب الواقعة في الأرض، فكذلك هو في الشر والألم والغم الذي يصيب العبد في نفسه، فإنما هو بسبب مخالفة الرسول، ولأنَّ طاعته هي الحصن الذي مَنْ دخله كان من الآمنين، والكهف الذي من لجأ إليه كان من الناجين، فعلم أن شرور الدنيا والآخرة إنما هو الجهل بما جاء به الرسول ﷺ والخروج عنه.

وهذا برهانٌ قاطعٌ على أنَّه لا نجاةَ للعبدِ ولا سعادةَ إلا بالاجتهاد في معرفة ما جاءَ به الرسول ﷺ عِلماً والقيام به عملاً.

---

(١) القاصمةُ: المُهلِكة أو المُذْهِبةُ. (انظر لسان العرب ١٢/٤٨٦).

(٢) الآية ٤٢ من سورة الأنفال. (٣) الآية ٥٩ من سورة النساء.

كمال السعادة:

وكمال هذه السعادة بأمرين آخرين:

أحدهما: دعوة الخلق إليه.

والثاني: صبره واجتهاده على تلك الدعوة.

الكمال الإنساني:

فانحصر الكمالُ الإنسانيُّ عَلى هذه المراتب الأربعة:

أحدها: العلم بما جاء به الرسول ﷺ.

والثانية: العمل به.

والثالثة: نشره في الناس ودعوتهم إليه.

والرابعة: صبره وجهادة في أدائه وتنفيذه.

ومن تطلَّعت هِمَّتُهُ إلى معرفةِ ما كانَ عليه الصحابة رضي الله عنهم وأراد اتباعهم فهذه طريقتهم حقاً:

فإن شئتَ وصل القوم فاسلك سبيلهم
فقَدْ وضحت للسالكينَ عياناً[1]

وقال تعالى لرسوله ﷺ: **﴿قُلْ إنْ ضَلَلْتُ فإنَّما أضِلُّ على نفسي وإن اهتديتُ فبما يُوحي إليَّ ربِّي إنَّه سميعٌ قريب﴾**[2].

فهذا نصٌّ صريحٌ في أن هدى الرسول ﷺ إنما يحصل بالوحي، فيا عجباً! كيف يحصل الهدى لغيره من الآراء والعقول المختلفة والأقوال المضطربة؟ ولكن: **﴿من يَهْدِ اللهُ فهو المهتدِ ومن يُضلِلْ فلن تَجِدْ له ولياً مُرشداً﴾**[3]. فأيُّ ضلالٍ أعظم من ضلال مَنْ زَعَمَ أنَّ الهداية لا تحصل بالوحي، ثم يحيل فيها

---

(١) لم أهتد لاسم قائل البيت بعد البحث.

(٢) الآية ٥٠ من سورة سبأ.

(٣) الآية ١٧ من سورة الكهف.

على عقل فلان ورأي فلان؟ وقول زيد وعمرو؟ ولقد عظمت نعمة الله على عبد عافاه من هذه البلية العظمى والمصيبة الكبرى، والحمد لله رب العالمين.

وقال تعالى: ﴿آلمص * كتاب أُنزل إليكَ فلا يَكُنْ في صَدْرِكَ حَرَجٌ منه لِتُنذِرَ به وذِكرى للمؤمنين * اتَّبعوا ما أُنزلَ إليكم من رَبِّكُم ولا تَتَّبعوا من دونه أولياءَ قليلاً ما تَذكَّرون﴾[1]. فأَمَرَ سُبحانَهُ باتِّباع ما أُنزل على رسوله ونهى عن اتباع غيره. فما هو إلا اتباع المنزل. واتباع أولياء من دونه. فإنه لم يجعل بينهما واسطَة. فكل من لا يتَّبع الوحي فإنما يتبع الباطل واتبع أولياء من دون الله، وهذا بحمد الله ظاهرٌ لا خفاء به.

وقال تعالى: ﴿ويوم يَعَضُّ الظالمُ على يديه يقول يا ليتني اتخذتُ مع الرسول سبيلاً * يا ويلتا ليتني لم أتَّخِذْ فُلاناً خليلاً * لقد أَضَلَّني عن الذِّكر بعد إذ جاءَني وكان الشَّيطانُ للإنسان خذولاً﴾[2].

فكلُّ من اتخذ غير الرسول، يترك لأقواله وآرائه ما جاء به الرسول ﷺ فإنه قائل هذه المقالة لا محالة. ولهذا الخليل كنى عنه باسم فلان، إذ لكل متبع أولياء من دون الله فلان وفلان.

فهذا حال الخليلين المتخالين على خلاف طاعة الرسول ﷺ ومآل تلك الخلة إلى العداوة واللعنة، كما قال الله تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَومئذٍ بَعضُهُم لبعضٍ عدوٌّ إلاَّ المُتَّقين﴾[3]. وقد ذكر حال هؤلاء الأتباع وحال من تبعوهم في غير موضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿يوم تُقَلَّبُ وجُوهُهُم في النار يقولون يا ليتنا أَطَعْنا الله وأطعنا الرَّسولا * وقالوا ربَّنا إنَّا أطعنا سادتنا وكُبَراءَنا فأَضلُّونا السَّبيلا * ربَّنا آتهم ضِعْفَين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾[4]. تمنى القوم طاعة الله ورسوله

---

(١) الآيات ١-٣ من سورة الأعراف.

(٢) الآيات ٢٧-٢٩ من سورة الفرقان.

(٣) الآية ٦٧ من سورة الزخرف.

(٤) الآيات ٦٦-٦٨ من سورة الزخرف.

حين لا ينفعهم ذلك. واعتذروا بأنهم أطاعوا كُبَراءَهُم ورُؤساءهم. واعترفوا بأنَّهم لا عُذْرَ لهم في ذلك، وأنهم أطاعوا السادات والكبراء وعصوا الرسول، وآلت تلك الطاعة والموالاة إلى قولهم: ﴿ربَّنا آتهم ضِعْفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾[1]. وفي بعض هذا عبرة للعاقل وموعظة شافية. وبالله التوفيق.

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْترى على اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بآياته أُولئكَ ينالُهُم نَصيبُهُم من الكتاب حَتَّى إذا جاءتهم رُسُلنا يتوفَّونَهم قالوا: أين ما كنتم تدعون من دونِ اللهِ؟ قالوا: ضَلُّوا عَنَّا وشَهِدُوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين * قال: ادْخُلُوا في أُمَمٍ قد خَلَتْ من قبلكم من الجِنِّ والإِنْسِ في النار، كُلَّمَا دخلتْ أُمَّةٌ لعنتْ أُخْتَها حَتَّى إذا ادَّاركوا[2] فيها جميعاً قالت أُخراهم لأُولاهم: ربَّنا هؤلاء أَضَلُّونا فآتِهم عذاباً ضِعفاً من النار * قال: لِكُلٍّ ضِعفٌ ولكن لا تعلمون * وقالت أولاهم لأُخراهم فما كَانَ لكُمْ عَلينا مِنْ فضلٍ فَذُوقُوا العَذَابَ بما كُنْتُم تَكْسِبون﴾[3].

فليتدبر العاقلُ هذهِ الآيات، وما اشتملتْ عليه من العبر.

الصنفان المبطلان:

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَم ممَّن افترى على الله كذباً أو كَذَّب بآياته﴾[4] ذكر الصنفين المبطلين.

أحدهما: مُنشِىء الباطل والفرية[5] وواضعها وداعي الناس إليها.

والثاني: مُكَذِّبٌ بالحقِّ.

فالأول: كفره بالافتراء وإنشاء الباطل.

---

(١) الآية ٦٨ من سورة الزخرف.

(٢) ادّاركوا فيها: أي اجتمعوا فيها كلهم. (تفسير ابن كثير ٢/٢٠٣).

(٣) الآيات ٣٧-٣٩ من سورة الأعراف.

(٤) الآية ٣٧ من سورة الأعراف.

(٥) الفِرْيةُ: الكذب. (لسان العرب ١٥/١٥٤).

والثاني: كفره بجحودِ الحق.

وهذان النوعان يعرضان لكل مبطل. فإنْ انضافَ إلى ذلك دعوته إلى باطله وصَدّ الناس عن الحق استحق تضعيف العذاب لكفره وشره.

ولهذا قال تعالى: ﴿الذين كفرُوا وصَدُّوا عن سبيل الله زِدْنَاهُم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يُفسِدون﴾[1] فلما كفروا وصدُّوا عباده عن سبيله عَذَّبهُم عذابين: عذاباً بصدهم عن سبيله. وحيث يذكر الكفر المجرد لا يعود العذاب. كقوله تعالى: ﴿وللكافرينَ عذابٌ أليم﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿أُولئك ينالُهم نَصيبُهُم من الكتاب﴾[3] يعني ينالهم ما كُتب لهم في الدنيا من الحياة والرزق وغير ذلك. ﴿حتَّى إذا جاءتهم رُسُلُنا يَتَوفَّونهم قالوا: أينَ ما كُنْتُم تدعونَ من دُون الله؟ قالوا: ضلُّوا عَنَّا﴾[4] زالوا وفارقوا وبطَلتْ تلك الدعوة: ﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين * قال: ادخلُوا في أُممٍ قد خَلَتْ من قبلكم من الجنِّ والإنس في النار﴾[5] ادخلوا في جملة هذه الأمم: ﴿كلَّما دخلت أمَّةٌ لعَنَتْ أُختها حتَّى إذا ادَّاركوا فيها جميعاً قالت أُخْراهم لأُولاهُم﴾[6] كل أمة متأخرة لأسلافها: ﴿ربَّنا هؤلاء أَضلُّونا فآتِهم عَذاباً ضِعفاً من النار﴾[7] ضاعفه عليهم بما أَضَلُّونا وصدُّونا عن طاعة رسلك، قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ ضِعف﴾[8] من الأتباع والمتبوعين بحسب ضلاله وكفره: ﴿ولكن لا تعلمون﴾[9] لا تعلم كل طائفة بما فيه أختها من العذاب المضاعف.

---

(١) الآية ٨٨ من سورة النحل.
(٢) الآية ٤ من سورة المجادلة.
(٣) الآية ٣٧ من سورة الأعراف.
(٤) الآية ٣٧ من سورة الأعراف.
(٥) الآيتان ٣٧، ٣٨ من سورة الأعراف.
(٦) الآية ٣٨ من سورة الأعراف.
(٧) الآية ٣٨ من سورة الأعراف.
(٨) الآية ٣٨ من سورة الأعراف.
(٩) الآية ٣٨ من سورة الأعراف.

﴿وقالت أُولاهم لأُخراهم فما كانَ لكُم علينا من فَضلٍ﴾[1] فإنكم جئتُم بعدنا فأرسلت فيكم الرسل وبيَّنوا لكُم الحقَّ وحَذَّروكم من ضلالنا ونهوكم عن اتِّباعنا وتقليدنا، فأبَيتُم إلاَّ اتباعنا وتقليدنا، وترك الحق الذي أتتكم به الرسل. فأي فضل كان لكم علينا، وقد ضللتم كما ضللنا، وتركتم الحق كما تركنا، فضللتم أنتم بنا كما ضللنا نحن بقوم آخرين. فأي فضل كان لكم علينا؟ ﴿فَذُوقُوا العذاب بما كنتم تكسِبُون﴾[2] فلله ما أشفاها من موعظة وما أبلغها من نصيحة، لو صادفت من القلوب حياة. فإنَّ هذه الآية وأمثالها مما يُذكِّر قلوبَ السائرين إلى الله، وأمَّا أهلُ البطالةِ فليس عندَهُم من ذلك خبر.

---

(١) الآية ٣٩ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ٣٩ من سورة الأعراف.

فصل

معركة الأتباع والمتبوعين

فهذا حُكْمُ الأتباع والمتبوعين المشركين في الضلالة. وأمَّا الأتباعُ المخالفون لمتبوعيهم، العادلون عن طريقتهم الذين يزعمون أنهم لهم تبع وليسوا متبعين لطريقتهم، فهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذين اتُّبِعوا من الَّذين اتَّبعوا ورَأَوا العَذَابَ وتقَطَّعت بهم الأَسبابُ * وقَالَ الَّذين اتَّبعوا لو أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتبرأَ منهم كَمَا تبرَّؤوا مِنَّا كذلكَ يُريهِمْ اللهُ أَعْمَالَهُم حَسَراتٍ عليهِم وما هُمْ بخارِجِينَ من النَّار﴾[1].

فهؤلاء المتبوعون كانوا على هدى، وأتباعهم ادعوا أنهم كانوا على طريقتهم ومناهجهم، وهم مخالفون لهم، سالكون غير طريقتهم، يزعمون أنهم يحبونهم، وأن محبتهم لهم تنفعهم مع مخالفتهم فيتبرءون منهم يوم القيامة، فإنهم اتخذوهم أولياء من دون الله وظنوا أن هذا الاتخاذ ينفعهم.

اتباع الأشقياء:

وهذه حال كل من اتَّخذَ مِنْ دُونِ اللهِ ورسوله وليجةً[2] وأولياءً، يوالي لهم ويُعادي لهم، ويرضى لهم ويغضب لهم، فإنَّ أعمالَه كُلَّها باطلة يراها يوم القيامة حَسَراتٍ عليه مع كَثْرتها وشدَّة تعبه فيها ونَصَبه[3]، إذ لم يجرد موالاته ومعاداته

(١) الآيتان ١٦٦-١٦٧ من سورة البقرة.

(٢) قال في مختار الصحاح: «وليجةُ الرجلِ: خاصَّتُهُ وبطانَتُه». (مختار الصحاح ص٧٣٥).

(٣) النَّصَب: التعب. (انظر مختار الصحاح ص٦٦١).

ومحبته وبغضه، وانتصاره وإيثاره لله ورسوله، فأَبطل اللهُ عَزَّ وجل ذلِكَ العملَ كُلَّه وقَطَعَ تِلكَ الأَسباب، فينقطع يوم القيامة كل سبب أو صلة ووسيلةٍ ومودةٍ وموالاةٍ كانت لغير الله تعالى، ولا يبقى إلَّا السَّبب الواصلُ بين العبدِ وربه، وهو حَظُّه من الهجرة إليه وإلى رسوله، وتجريد عبادته له وحده ولوازمها من الحُبِّ والبغض، والعطاء والمنع، والموالاة والمعاداة، والتقريب والإبعاد وتجريد متابعة رسوله وترك أقوال غيره، وترك ما خالف ما جاء به، والإعراض عنه وعدم الاعتناء به، وتجريد متابعته تجريداً مَحْضاً بريئاً من شوائب الالتفات إلى غيره، فضلاً عن الشركة بينه وبين غيره، فضلاً عن تقديم قول غيره عليه.

فهذا هو السبب الذي لا ينقطعُ بصاحبه، وهذه هي النسبةُ التي بين العبد وربه، وهي نسبةُ العبوديةِ المحضةِ وهي آخيَّته[1] التي يحول ما يحول ثم إليها مرجعه.

نَقِّلْ فؤادَكَ حَيثُ شئتَ مِنَ الهوى
ما الحُبُّ إلَّا لِلحَبيبِ الأَوَّلِ
كَمْ مَنْزِلٍ فِي الأَرْضِ يَأْلَفُهُ الفَتى
وحَنِينُهُ أَبداً لأَوَّلِ مَنْزِلِ[2]

وهذه هي النسبةُ التي تنفعُ العبد، فلا ينفعه غيرها في الدور الثلاثة: أعني دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، فلا قوام له ولا عيش ولا نعيم ولا فلاح إلا بهذه النسبة. وهي السببُ الواصل بين العبد وبين الله ولقد أحسن القائل:

---

(١) الآخيَّة: بالمد والتشديد: حُبَيل أو عُوَيدٌ يُعرضُ في الحائط ويُدفن طرفاه فيه ويصير وسطه كالعروة وتُشدُّ فيها الدابة. (النهاية في غريب الحديث ١/٢٩).

(٢) قائل هذين البيتين أبو تمام: حبيب بن أوس الطائي الشاعر البارع، المشهور، من أبيات له مطلعها:

البينُ جَرَّعني نقيع الحنظلِ ... والبينُ أثكلني وإن لم أثكل

(انظر ديوان أبي تمام ص٤٦٣).

إذا تَقَطَّع حبلُ الوصلِ بينهم
فللمحبينَ حَبلٌ غيرُ مُنقطعِ
وإنْ تصدَّع شملُ القومِ بينهم
فللمحبينَ شملٌ غير منصدع[1]

والمقصود أنَّ الله سُبحانه يقطع يوم القيامة الأسباب والعلق والوصلات التي كانت بين الخلق في الدنيا كلها، ولا يبقى إلا السبب والوصلة التي بين العبدِ وبين الله فقط، وهو سببُ العبودية المحضَةِ التي لا وجود لها ولا تحقيق إلا بتجريد متابعة الرُّسُل صلوات الله وسلامه عليهم، إذْ هذه العبودية إنما جاءَتْ على ألسنَتِهم، وما عُرِفَتْ إلاَّ بهم، ولا سبيل إليها إلا بمتابعتهم. وقد قال تعالى: ﴿**وقَدِمْنا إلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فجعلناهُ هَباءً مَنْثوراً**﴾[2].

فهذه هي أعمالُهُ التي كانت في الدنيا على غير سُنَّةِ رسله وطريقتهم ولغير وجهه، يجعلها الله هَباءً منثوراً. ولا ينتفع منها صاحبها بشيء أصلاً، وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة: أن يرى سعيه كله ضائعاً لم ينتفع منه بشيء، وهو أحوج ما كان العامل إلى عمله، وقد سعد أهل السعي النافع بسعيهم.

(١) لم أجد اسم قائل هذين البيتين، وقد أوردهما المصنف في كتابه «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» ص٢٨٠ ولم يذكر قائلهما.

(٢) الآية ٢٣ من سورة الفرقان.

فصل

أتباع السعداء

فهذا حُكمُ أتباعِ الأشقياءِ، فأمَّا أتباعُ السُّعداءِ فنَوْعانِ:

أتباعٌ لهم حُكْمُ الاستقلال وهُم الذين قال الله عزَّ وجلَّ فيهم: ﴿والسَّابقونَ الأوَّلـون من المُهَـاجِـرينَ والأنصارِ والَّذين اتَّبعوهم بإحْسَانٍ رَضِيَ الله عَنْهُم ورَضُوا عنه﴾[1].

فهؤلاء هم السعداءُ الَّذين ثَبَتَ لهُمْ رضا الله عنهم، وهُمْ أصحابُ رسولِ الله ﷺ وكُلُّ مَنْ تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة. ولا يختص ذلك بالقرن الذين رأوهم فقط، وإنما خَصَّ التابعين. بمن رأوا الصحابة تخصيصاً عرفياً ليتميزوا به عمن بَعْـدَهُم فقيل: التابعون مُطْلَقاً لذلك القرن فقط وإلاَّ فكُلُّ مَنْ سَلَكَ سبيلَهُم فهوَ من التابعين لهم بإحسان، وهو مِمَّنْ رَضيَ اللهُ عنهم ورضوا عنه.

الإحسان في التبعية:

وقَيَّدَ سُبحانَهُ هذه التبعية بأنَّها تبعيةٌ بإحسانٍ ليست مطلقة فتحصل بمجردِ النية والاتِّباع في شيء والمخالفة في غيره، ولكن تبعية مصاحبة الإحسان. وأن الباء هاهنا للمصاحبة. والإحسان والمتابعة شرط في حصول رضاء الله عنهم وجناته.

وقد قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّين رَسُولاً منهم يتلو عليهم آياته

---

(١) الآية ١٠٠ من سورة التوبة.

ويُـزكِّيهم ويُعَلِّمهم الكِتـابَ والحِكْمَة وإنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * وآخرينَ مِنهُم لَمَّا يَلْحَقُوا بهم وهو العزيز الحكيم * ذَلِكَ فَضلُ اللهِ يؤتيه من يَشاءُ واللهُ ذُو الفضلِ العظيمِ﴾[1].

فالأوَّلون: هم الذين أدْرَكُوا رسولَ الله ﷺ وصحبوه.

والآخرون: هم الَّذين لَمْ يَلحَقُوهُم، وهُمْ كُلُّ مَنْ بَعدِهم على منهاجهم إلى يوم القيامة، فيكون التأخُّر وعدم اللحاق في الفضل والرتبة، بل هم دونهم فيكـون عدم اللحـاق في الـرتبـة، والقولان كالمتلازمين؛ فإنَّ من بعدهم لا يلحقون بهم لا في الفضل ولا في الزمان، فهؤلاء الصنفان هم السعداء.

وأما من لم يقبل هدى الله الذي بعث به رسوله ولم يرفع به رأساً فهو من الصنف الثالث وهم: **﴿مَثَلُ الذين حُمِّلوا التَّوراة ثُمَّ لَمْ يَحمِلُوها كَمَثَلِ الحمارِ يحمِلُ أسْفاراً﴾**[2].

وقد ذكر النبيُّ ﷺ أقسامَ الخلائقِ بالنسبة إلى دعوته وما بُعِثَ به من الهُدى في قوله ﷺ: «مَثَلُ ما بعثني الله به من الهُدى والعِلم كمثلِ غيثٍ أصابَ أرضاً فكانَتْ منها طائفةٌ طيبةٌ قَبِلَتْ الماء فأنبتت الكلأ[3] والعُشب الكثير وكانت منها أجادبُ[4] أمْسكَتِ الماءَ فسقى الناس وزرعوا، وأصاب طائفة أخرى إنما هي قِيعان[5] لا تُمسِكُ ماءً ولا تُنبتُ كَلأً، فذلكَ مثلُ مَنْ فَقِهَ في الدينِ فنفعه ما بعثني الله به، ومثلُ مَنْ لم يَرفع بذلك رأساً ولم يقْبَل هُدى اللهِ الذي أُرسلتُ به»[6].

---

(١) الآيات ٢-٤ من سورة الجمعة.

(٢) الآية ٥ من سورة الجمعة.

(٣) الكَلأ: العُشبُ رَطْباً كان أو يابساً. (مختار الصحاح ص٥٧٥).

(٤) الأجادب: صلاب الأرض التي تُمسك الماء فلا تشربه سريعاً. وقيل هي الأرض التي لا نبات بها، مأخوذ من الجدب وه والقحط. (النهاية في غريب الحديث والأثر ١/٢٤٢-٢٤٣).

(٥) قيعان: جمع قاع وهو الأرض المستوية الملساء التي لا تنبت (فتح الباري ١/١٧٧).

(٦) الحديث أخرجه: البخاري في كتاب العلم، باب فضل من عَلِمَ وعَلَّم ج١ ص١٧٥،

الغيث والعلم:

فشبَّه ﷺ العلمَ الذي جاء به بالغيث لأنَّ كُلاًّ منهما سبب الحياة، فالغيثُ سببُ حياة الأبدان، والعِلمُ سببُ حياةِ القلوب.

وشبَّه القلوب بالأودية كما في قَوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَالَتْ أودِيةٌ بِقَدَرِها﴾[1].

الأرض والغيث:

وكما أن الأرضين ثلاثة بالنسبة إلى قبول الغيث.

إحداها: أرضٌ زكيةٌ قابلةٌ للشَّراب والنبات، فإذا أصابها الغيثُ ارتوت ومنه يثمرُ النَّبتُ من كلِّ زوجٍ بهيج. فذلِكَ مثلُ القلب الزكي الذكي فهو يقبل العلم بذكائه، فيثمر فيه وجوه الحكم ودين الحق بزكائه، فهو قابل للعلم، مثمر لموجبهِ وفقهه وأسرار معادنه.

والثانية: أَرضٌ صَلبَةٌ قابِلةٌ لثبوتِ ما فيها وحفظه، فهذه تنفعُ الناسَ لورودها والسقي منها والازدراع.

وهو مثلُ القلب الحافظ للعلم الذي يحفظه كما سمعه، فلا تَصَرُّفَ فيه ولا استنبط، بل للحفظ المجرد فهو يُؤدي كما سمع، وهو من القسم الذي قال فيه النبي ﷺ: «فَرُبَّ حامِلِ فِقْهٍ إلى مَنْ هُوَ أَفْقه منه، ورُبَّ حَامِلِ فقهٍ غير فقيه»[2].

= ومسلم في كتاب الفضائل باب بيان مثل ما بعث النبي ﷺ من الهدى والعلم، ج٤ ص١٨٧/١٧٨٨، والإمام أحمد في المسند ٣٩٩/٤.

(١) الآية ١٧ من سورة الرعد.

(٢) الحديث أخرجه عن زيد بن ثابت: أبو داود في كتاب العلم باب فضل نشر العلم ج٤ ص٦٩، والترمذي في كتاب العلم باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع ٣٤/٥ وقال: «حديث زيد بن ثابت حديث حسن»، وابن ماجة في المقدمة باب من بلَّغ علماً ٨٤/١ حديث رقم (٢٣٠)، والإمام أحمد في المسند ١٨٣/٥، ورواه عن جبير بن =

فالأول: كمثل الغني التاجر الخبير بوجوه المكاسب والتجارات فهو يكسب بماله ما شاء.

والثاني: مثل الغني الذي لا خبرة له بوجوه الربح والمكسب، ولكنه حافظ لما لا يحسن التصرف والتقلب فيه.

والأرض الثالثة: أرضٌ قاعٌ، وهو المستوى الذي لا يقبل النبات، ولا يمسك ماءً، فلو أصابها من المطر ما أصابها لم تنتفع منه بشيء.

فهذا مثل القلب الذي لاَ يَقبلُ العلمَ والفقه والدِرَاية، وإنما هو بمنزلةِ الأرض البوارِ التي لا تنبتُ ولا تحفظ، وهو مثل الفقير الَّذي لا مال له، ولا يحسن يمسك مالاً.

فالأوَّل: عالِمٌ معلم، وداعٍ إلى الله على بصيرة، فهذا من ورثة الرُّسل.

والثاني: حافِظٌ مُؤَدٍ لما سمعه، فهذا يحمل لغيره ما يتَّجر به المحمول إليه ويستثمر.

والثالث: لا هذا ولا هذا، فهو الذي لم يقبل هُدى الله، ولم يرفع به رأساً.

فاستوعب هذا الحديث أقسام الخَلقِ في الدعوة النبوية ومنازلهم. منها قسمان: قسم سعيد، وقسم شقي.

= مطعم: ابن ماجة ١/٨٥، والإمام أحمد في المسند ٤/٨٢ والدارمي ١/٧٤-٧٥، ونسبه المنذري للنسائي انظر مختصر سنن أبي داود للحافظ المنذري ج٥ ص٢٥٣.

قال الخطابي في معالم السنن: «وفي قوله رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» دليل على كراهة اختصار الحديث لمن ليس بالمتناهي في الفقه، لأنه إذا فعل ذلك فقد قطع طريق الاستنباط والاستدلال لمعاني الكلام من طريق التفهم». انظر معالم السنن للخطابي مع مختصر سنن أبي داود ج٥ ص٢٥٣.

فصل

أطفال المؤمنين

وأمَّا النَّوع الثاني من الأَتباع: فهم أَتْباعُ المؤمنين من ذريتهم الذين لم يثبت لهم حُكْمُ التكليف في دارِ الدُّنيا، وإنما هم مع آبائهم تبع لهم.

وقال الله تعالى: ﴿والَّذين آمنوا واتَّبعتهم ذُرِّيتهم بإيمانٍ أُلحقنا بهم ذُرِّيتهم وما أَلَتْناهُم من عملهم من شيءٍ﴾[1].

أخبـر سبحـانـه أنه ألحق الذرية بآبائهم في الجنة كما أتبعهم إياهم في الإيمان. ولما كان الذرية لا عمل لهم يستحقون به تلك الدرجات قال تعالى: ﴿وما أَلَتْناهُم من عملهم من شيءٍ﴾[2]. والضمير عائد إلى الذين آمنوا.

أي: وما نقصناهُم من عملهم، بل رَفَعْنا ذريتهم إلى درجتهم مع توفيتهم أجور أعمالهم؛ فليست منزلتهم منزلة من لم يكن له عمل، بل وفيناهم أجورهم فألحقنا بهم ذريتهم فوق ما يستحقون من أعمالهم.

ثم لما كان هذا الإلحاق في الثواب والدرجات فضلاً من الله، فربما وقع في الوهم أن إلحاق الذرية أيضاً حاصلٌ لهم في حكم العدل، فلما اكتسبوا سيئـات أوجبت عقـوبـة، كان كُلُّ عامـلٍ رهيناً بكسبه لا يتعلق بغيره شيء.

---

(١) الآية ٢١ من سورة الطور.

(٢) ما أَلَتْناهم: ما نقصنا الأبناء من ثواب أعمالهم لقصر أعمارهم وما نقصنا الآباء من ثواب أعمالهم شيئاً بإلحاق الذريات بهم. (تفسير القرطبي المجلد التاسع الجزء ١٧ ص٦٧).

فالإلحاق المذكور إنما هو في الفضل والثواب لا في العدل والعقاب، وهذا نوعٌ من أسرارِ القرآن وكنوزه التي يختص الله بفهمها من شاء.

فقــد تضمَّنت هذه الآية أقسـامَ الخـلائقِ كلِّهم: أشقيائهم وسعـدائهم السعداء المتبوعين والأتباع، والأشقياء المتبوعين والأتباع.

فعلى العاقل الناصح لنفسه أن ينظر في أي الأقسام هو، ولا يغتر بالعادة ويخلد إلى البطالة، فإن كان من قسم سعيد انتقل إلى ما هو فوقه وبذل جهده، والله ولي التوفيق والنجاح. وإن كان من قسم شقي انتقل منه إلى القسم السعيد في زمن الإمكان قبل أن يقول: ﴿يا ليتني اتخذتُ مع الرسول سبيلاً﴾[1].

(١) الآية ٢١ من سورة الطور.

فصل

سفر الهجرة

والمقصود بهذا أن من أعظم التعاون على البر والتقوى والتعاون على سفر الهجرة إلى الله والرسول باليد واللسان والقلب والمساعدة والنصيحة تعليماً وإرشاداً ومودة. ومن كان هذا مع عباد الله فكل خير إليه أسرع، وأقبل الله إليه بقلوب عباده، وفتح على قلبه أبواب العلم، ويسّره لليسرى، ومن كان بالضد فبالضد.

زاد السفر:

فإنْ قُلت: قد أشرت إلى سفر عظيم وأمر جسيم، فما زادُ هذا السفر وما طريقه وما مركبُهُ؟.

قلت: زادُهُ العلمُ الموروثُ من خاتم الأنبياء ﷺ ولا زاد له سواه، فمن لم يُحصِّل هذا الزاد فلا يخرج من بيته وليقعد مع الخالفين. فرفقاء المتخلف البطالون أكثر من أن يحصوا، فله أسوةٌ بهم ولن ينفعه هذا التأسي يوم الحسرة شيئاً كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفعَكُم اليومَ إذْ ظلمْتُم أنَّكُم في العَذابِ مُشتَرِكون﴾[2]. فقطع الله سبحانه انتفاعهم بتأسي بعضهم ببعض في العذاب،

---

(1) إشارة لقوله تعالى: ﴿ويَومَ يَعَضُّ الظالِمُ على يديه يقول يا ليتني اتَّخذتُ مع الرَّسول سبيلاً﴾ الآية ٢٧ من سورة الفرقان

(2) الآية ٣٩ من سورة الزخرف.

فإن مصائب الدنيا إذا عَمَّت صارت مسلاة، وتأسى بعض المصابين ببعض كما قالت الخنساء[1]:

ولــولا كثـرةُ الـبــاكـيـنَ حَولـي
على إخــوانِــهِــم لَقَــتـلْتُ نفــســي

ومــا يــكــونَ مثـلَ أخــي ولــكــن
أُســلِّي الــنـفس عنــه بالــتَّــأسِّــي[2]

فهذا الروح الحاصل من التأسي معدوم بين المشتركين في العذاب يوم القيامة.

طريق السفر:

وأما طريقه: فهو بذل الجهد، واستفراغ الوسع، فلا يُنال بالمنى، ولن يدرك بالهوينا وإنما هو كما قيل:

فخض غمـراتِ المـوت واسمُ إلى العــلا
لكــي تُدرِكَ الــعــزَّ الــرفـيع الـدائــم[3]

---

(١) هي تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد، الرياحية السُّلمية، من بني سُليم، من قيس عيلان، من مضر، شاعرة شهيد، وصحابية جليلة، عاشت أكثر عمرها في العهد الجاهلي وأدركت الإسلام فأسلمت. ووفدت على الرسول مع قومها بني سليم فكان رسول الله ﷺ يستنشدها ويعجبه شعرها ويقول: «هيه يا خناس». (انظر ترجمتها في: الإصابة ٤/٢٧٩، أعلام النساء لكحالة ١/٣٦٠، والأعلام للزركلي ٢/٨٦).

(٢) انظر البيتين في ديوان الخنساء ص٦٢، وهما من قصيدة محاسن شعرها ترثي بها أخاها صخراً ومطلع القصيدة:

يُؤرِّقــنــي الــتــذكُــر حين أُمــســي فأُصــبــحُ قد بُليت بفَــرطِ نَكسِ

(٣) كذا البيت في الأصل وفيه خطأ لغوي وكسر عروضي، حيث كان الوجه أن يقول «الدائما» لأن كلمة «الدائم» صفة لكلمة «العز» الواقعة مفعولاً به. أما الكسر العروضي فهو في آخر تفعيلة من الشطر الثاني.

فلا خير في نفسٍ تخاف من الردى
ولا همة تصبو إلى لوم لائم[1]

ولا سبيل إلى ركوبِ هذا الظهر إلاَّ بأمرين:

أحدُهُما: أنْ لا يصبو في الحقِ إلى لومِ لائمٍ، فإنَّ اللومَ يصيب الفارس فيصرعه عن فرسه، ويجعله صريعاً في الأرض.

والثاني: أن تهون عليه نفسه في الله؛ فيقدم حينئذ ولا يخاف الأهوال، فمتى خافَتْ النفس تأخَّرَتْ وأَحْجمتْ[2] وأخلدَتْ إلى الأرض، ولا يتم لِه هذان الأمران إلا بالصبرِ، فمَنْ صَبَرَ قليلاً صارت تلك الأهوال ريحاً رُخَاءً[3] في حقه تحمله بنفسها إلى مطلوبه، فبينما هو يخافُ منها إذ صارت أعظم أعوانه وخدمه، وهذا أمر لا يعرف إلا من دخل فيه.

مركب السفر:

وأما مركبه فصدقُ اللجأ إلى الله والانقطاع إليه بكليته، وتحقيق الافتقار إليه بكل وجه، والضراعةُ إليه وصدقُ التوكلِ والاستعانة به، والانطراحُ بين يديه. انطراحِ المسلوم المكسور الفارغ الذي لا شيء عنده، فهو يتطلع إلى قيِّمه ووليِّه أن يجدَّهُ ويلمَّ شعثَهُ ويمده من فضله ويستره، فهذا الذي يرجى له أن يتولى الله هدايته، وأن يكشف له ما خفي على غيره من طريق هذه الهجرة ومنازلها.

---

(١) لم أجد اسم قائل هذين البيتين بعد البحث.

(٢) أحجمت: من الإحجام وهو ضد الإقدام، وقد أحجم عن الأمر: كفَّ أو نكص هيبة. (لسان العرب ١٢/١١٦).

(٣) الرُّخاءُ من الرياح: الليِّنة السريعة لا تُزعزِع شيئاً. (لسان العرب ١٤/٣١٥).

فصل

التدبر والتفكر في آلاء الله

ورأسُ الأمرِ وعمودُه في ذلِكَ، إنما هو دوامُ التفكرِ وتدبر آيات الله، حيث تستولي على الفكر وتشغلُ القلب، فإذا صارت معاني القرآن مكان الخواطر من قلبه وجلس على كرسيه، وصار له التصرف، وصار هو الأمير المطاع أمره، فحينئذ يستقيم له سيره، ويتّضحُ له الطريق، وتراه ساكناً وهو يباري الريح: ﴿وتَرى الجبالَ تَحسَبُها جامدةً وهي تمرُّ مرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللهِ الَّذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيءٍ إنَّهُ خَبيرٌ بما تَفعَلُون﴾[1].

---

(١) الآية ٨٨ من سورة النمل.

فصل

تدبر القرآن

فإنْ قُلتَ: إنَّكَ قد أشرتَ إلى مقامٍ عظيمٍ ففتح لي بابَهُ، واكشف لي حِجابَهُ، وكيف تَدَبُّرُ القرآن وتفهمه والإشرافُ على عجائبه وكنوزه؟ وهذه تفاسير لأئمةٍ بأيدينا فهَلْ في البيان غير ما ذكروه؟.

قلتُ: سأضربُ لكَ أمثالاً تَحْتَذي عليها وتجعلها إماماً لك في هذا المقصد. قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتاكَ حديثُ ضَيفِ إبراهيمَ المُكْرمِينَ * إذْ دَخَلُوا عليه فقالوا سلاماً * قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنكَرُون * فرَاغَ[1] إلى أهله فجاءَ بعِجْلٍ سَمين * فَقَرَّبه إليهم قال ألا تأكُلون * فأَوْجَسَ[2] منهم خِيفةً قالوا: لا تخف وبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عليم * فأقبلت امرأتهُ في صَرَّةٍ[3] فَصَكَّت[4] وجهها وقالت عجوز عقيم * قالوا كَذَلِكِ قالَ ربُّكِ إنَّهُ هو الحكيمُ العليم﴾[5].

فعهدي بِكَ إذا قرأتَ هذه الآية وتطَلَّعت إلى معناها وتدبرتها. فإنَّما تَطَّلعُ منها على أنَّ الملائكة أتوا إبراهيم في صورة الأضياف يأكُلُون ويَشربُون وبَشَّروه بِغُلامٍ عليمٍ، وإنما امرأتُهُ عجِبَتْ مِنْ ذلكَ فأخبرتها الملائكة أنَّ الله قالَ ذَلِكَ،

---

(١) فراغ: أي انسل خفية في سرعة. (تفسير ابن كثير ٤/٢٣٦).

(٢) أوجسَ: أضمر. (مختار الصحاح ص٧١٠).

(٣) صَرَّه: صرخة عظيمة ورنة. (تفسير ابن كثير ٤/٢٣٧).

(٤) فصكَّت وجهها: أي ضربت بيدها على جبينها. (تفسير ابن كثير ٤/٢٣٧).

(٥) الآيات ٢٤-٣٠ من سورة الذاريات.

ولم يتجاوزْ تَدَبُّرِكَ غيرَ ذلِكَ.

فاسمعْ الآن بعض ما في هذه الآيات من أنواع الأسرارِ. وكم قد تَضَمَّنت من الثناء على إبراهيم؟ وكيف جَمَعَتْ الضيافة وحقوقها؟ وما تضمنت من الرد على أهلِ الباطل من الفلاسفةِ والمُعَطِّلةِ. وكيف تضمَّنت عَلَمَاً عظيماً من أعلام النبُوّه؟ وكيف تَضمَّنت جَميعَ صفاتِ الكمالِ، التي رَدَّها إلى العلم والحكمة؟ وكيف أشارت إلى دليلِ إمكان المعاد بِألطَفِ إشارةٍ وأوْضَحِهَا، ثم أفْصحت وقوعه.

وكيف تَضمَّنت الإخبار عن عدلِ الرّب وانتقامه من الأمم المُكَذِّبة؟ وتَضمَّنت ذكرَ الإسلام والإيمان والفرق بينهما. وتضمَّنت بقاء آياتِ الربِّ الدالة على توحيده وصدقِ رُسُله، وعلى اليومِ الآخر، وتضمَّنت أنه لا ينتفع بهذا كله إلا من في قلبه خوف من عذاب الآخرة، وهم المؤمنون بها.

وأما من لا يخاف الآخِرَة ولا يُؤمِنُ بها فلا يَنتفعُ بتلكَ الآيات.

فاسمع الآن بعض تفاصيل هذه الجملة:

قال اللهُ تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيفِ إبراهيمَ المكرمين﴾[1].

افتتحَ سُبحانَهُ القصة بصيغةٍ موضوعةٍ للاستفهام، وليس المراد بها حقيقة الاستفهام ولهذا قال بعضُ الناس: إنَّ (هل) في مثل هذا الموضع بمعنى (قد) التي تقتضي التحقيق. ولكِنْ في ورودِ الكلام في مثل هذا بصيغة الاستفهام سِرٌّ لطيفٌ، ومعنى بديع، فإنَّ المتكلِّم إذا أَرادَ أن يُخبِرَ المخاطَبَ بأمرٍ عجيب ينبغي الاعتناءُ به، وإحضارُ الذهنِ له، صَدَّرَ له الكلام بأداةِ الاستفهام، لتنبيه سَمْعِهِ وذِهْنِهِ للمخبر به، فتارةً يصدره بألا، وتارةً يصدره بهل، فيقول: هل علمت ما كان من كيت وكيت؟ إما مُذَكِّراً به، وإما واعظاً له مُخَوِّفاً، وإما مُنَبِّهاً على عَظَمةِ ما يُخبَرُ به، وإما مقرِّراً له.

(١) الآية ٢٤ من سورة الذاريات.

فقـولـه تعـالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسى﴾[1]، ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخَصْمِ﴾[2]، و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغَاشِيَةِ﴾[3]، و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبراهِيمَ المُكْرَمِينَ﴾[4] متضمن لتعظيم هذهِ القصص والتنبيه على تدبُّرها ومَعرفَتِها ما تضمنته. ففيه أمر آخر. وهو التنبيهُ على أنَّ إتيانَ هذا إليك عَلَم من أعلام النبوة، فإنَّه مِنَ الغيب الذي لا تعلمهُ أنتَ ولا قومك. فهل أتاك من غير إعلامنا وإرسالنا وتعريفنا؟ أَمْ لم يأتِكَ إلا من قبلنا؟.

فانظر ظهور هذا الكلام بصيغةِ الاستفهام، وتَأَمَّلْ عظم موقعه من جميع موارده يشهد أنه من الفصاحة في ذروتها العليا.

وقـولـه: ﴿ضيف إبـراهيم﴾ متضمن لثنـائه على خليله إبراهيم فإنَّ في ﴿المُكْرَمِين﴾ قولين:

أحدهما: إكرامُ إبراهيم لهم، ففيه مَدْحُ إبراهيم بإكرام الضيف.

والثاني: أنهم مُكرمون عند الله كقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُون﴾[5] وهو مُتَضمِّنٌ أيضاً لتعظيم خليله ومدحه؛ إذْ جعلَ ملائكته المكرمين أضيافاً له، فعلى كلا التقديرين فيه مَدْحٌ لإبراهيم.

وقوله: ﴿فَقَالوا سلاماً قال سلام﴾[6] مُتَضَمِّنٌ بمدح آخر لإبراهيم حيث رَدَّ عليهم السلام أحسن مما حيوه به، فإنَّ تحيَّتهم باسمٍ منصوبٍ مُتضمِّنٌ لجملة فعلية تقديره: سَلَّمنا عليك سَلاماً. وتحيةُ إبراهيمَ لهم باسمٍ مرفوعٍ متضمن لجملة اسمية تقديره: سلامٌ دائم أو ثابت أو مستقرٌّ عليكم، ولا ريبَ أنَّ الجملة

---

(١) الآية ٩ من سورة طه.

(٢) الآية ٢١ من سورة ص.

(٣) الآية ١ من سورة الغاشية.

(٤) الآية ٢٤ من سورة الذاريات.

(٥) الآية ٢٦ من سورة الأنبياء.

(٦) الآية ٢٥ من سورة الذاريات.

الاسمية تقتضي الثبوت واللزوم، والفعلية تقتضي التجدد والحدوث، فكانت تحيةُ إبراهيم أكمل وأحسن.

ثُمَّ قال: ﴿قومٌ مُنْكَرون﴾[1] وفي هذا من حسن مخاطبة الضيف والتذمم منه وجهان في المدح:

أحدهما: أنه حذف المبتدأ والتقدير: أنتم قوم منكرون، فتذمم منهم ولم يواجههم بهذا الخطاب لما فيه من الاستيحاش.

وكان النبي ﷺ لا يُواجِهُ أحداً بما يكرهه بل يقول: «ما بالُ أقوامٍ يقولون كذا ويفعلون كذا»[2].

الثاني: قوله (قوم منكرون) فحذف فاعل الإنكار وهو الذي كان أنكرهم كما قال في موضع آخر (نكرهم) ولا ريب أن قوله (منكرون) ألطف من أن يقول أنكرتم. وقوله: ﴿فَرَاغَ إلى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعجْلٍ سمين * فَقَرَّبه إليهم قال ألا تأْكُلون﴾[3] مُتَضمِّنٌ وجوهاً من المدح وآدابِ الضيافة وإكرام الضيف.

منها قوله: ﴿فَرَاغَ إلى أَهْلِهِ﴾ والروغان الذَّهابُ بسرعة واختفاء. وهو يتضمنُ المبادرةَ إلى إكرام الضيف، والاختفاءُ يتضَمَّنُ ترك تخجيله وألا يعرض للحياء وهذا بخلاف من يتثاقل ويتبارد على ضيفه ثم يبرز بمرأى منه ويحلُّ صرة النفقة ويزن ما يأخذ، ويتناول الإناء بمرأى منه ونحو ذلك مما يتضمَّن تخجيلَ الضيف وحياءَه، فلفظةُ (راغَ) تنفي هذين الأمرين. وفي قوله تعالى: ﴿إلى أهله﴾ مَدْحٌ آخر لما فيه من الإشعار أن كرامةَ الضيف معدَّةٌ حاصلة عند أهله،

---

(١) الآية ٢٥ من سورة الذاريات.

(٢) ومن ذلك قوله ﷺ: «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟ لكني أُصلي وأنام. وأصوم، وأُفطر. وأتـزوج النسـاء. فمن رغب عن سنَّتي فليس مني» رواه البخاري ١٠٤/٩، ومسلم ١٠٢٠/٢، والنسائي ٦٠/٦، وأحمد في المسند ٢٤١/٣.

(٣) الآيتان ٢٦-٢٧ من سورة الذاريات.

وأنه لا يحتاج أن يستقرض من جيرانه، ولا يذهب إلى غير أهلهِ إذ قِرى الضيف حاصلٌ عندهم.

وقوله: ﴿فجاءَ بعِجْلٍ سمينٍ﴾[1] يتضمن ثلاثةَ أنواعٍ من المدح:

أحدها: خدمةُ ضيفه بنفسِهِ، فإنَّهُ لم يرسل به، وإنما جاء به بنفسه.

الثاني: أنَّه جاءَهُم بحيوانٍ تامٍ لم يأتِهِم ببعضه، ليتخيَّروا من أطيب لحمه ما شاءوا.

الثـالث: أنَّه سمينٌ ليسَ بمهزولٍ، وهذا من نفائس الأموال، ولد البقر السمين فإنهم يعجبون به، فمن كرمه هان عليه ذَبْحُهُ وإحضارُهُ.

وقوله: ﴿إليهم﴾ متضَمِّنٌ المدح وآداباً أخرى وهو إحضارُ الطعامِ بين يدي الضيف، بخلاف من يُهيِّيء الطعام في موضع ثم يقيم ضيفه فيورده عليه.

وقوله: ﴿ألا تأكلون؟﴾[2] فيه مدح وآداب أُخر؛ فإنَّهُ عَرَض عليهم الأكل بقوله: ﴿ألا تأكلون؟﴾ وهذه صيغةُ عرضٍ مؤذنة بالتلطف، بخلاف من يقول: ضعوا أيديكم في الطعام، كُلُوا، تقدَّموا، ونحو هذا.

وقوله: ﴿فأَوْجَسَ مِنْهُم خِيفة﴾[3] لأنه لما رآهم لا يأكلونَ من طعامهِ أَضْمَرَ منهم خوفـاً أن يكون معهم شر، فإنَّ الضيف إذا أكل من طعامٍ ربُّ المنزلِ اطمـأنَّ إليه وأَنِسَ به فلمـا علمـوا منه ذلك: ﴿قالوا لا تَخَفْ وبَشَّروه بغلامٍ عليم﴾[4] وهذا الغلام إسحق لا إسماعيل؛ لأن امرأته عجبت من ذلك فقالت: عجـوز عقيم لا يولد لمثلي، فأنى لي بالولد؟ وأما إسماعيل فإنه من سُرِّيَّته[5] هاجر وكان بِكْرَهُ وأوَّلَ ولده. وقد بيَّن سبحانه هذا في سورة هود في قوله تعالى:

(١) الآية ٢٦ من سورة الذاريات.

(٢) الآية ٢٧ من سورة الذاريات.

(٣) الآية ٢٨ من سورة الذاريات.

(٤) الآية ٢٨ من سورة الذاريات.

(٥) السُرِّيَّةُ: الجارية المملوكة. (المعجم الوسيط ١/٤٢٩).

﴿فبشَّرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب﴾[1] وهذه هي القصةُ نَفْسُها. وقوله تعالى: ﴿فأَقْبَلَت امرأتُهُ في صَرَّةٍ فصكَّتْ وجْهَهَا﴾[2] فيه بيان ضعف عقلِ المرأة وعدم ثباتها، إذْ بادرت إلى النُّدبة[3] فصكَّت الوجه عند هذا الإخبار. وقوله: ﴿عجوز عقيم﴾ فيه حسن أدبِ المرأة عند خطاب الرجال واقتصارها من الكلام على ما يتأدَّى به الحاجة فإنها حذفت المبتدأ ولم تقل أنا عجوز عقيم، واقتصرت على ذكر السبب الدار على عدم الولادة لم تذكر غيره، وأما في سورة هود، فذكرت السبب المانع منها ومن إبراهيم وصرحت بالعجب[4].

وقوله تعالى: ﴿قالوا كذلك قال رَبُّكِ﴾[5]: مُتَضمِّنٌ لإثبات صفةِ القول له.

وقوله: ﴿إنَّهُ هو الحكيم العليم﴾[6] مُتضمِّنٌ لإثبات صفتي الحكمةِ والعلم اللذين هما مَصدرُ الخلقِ والأمر، فجميعُ ما خَلَقَهُ سبحانهُ صَادرٌ عنْ عِلمِه وحِكمته، وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته.

والعلمُ والحكمةُ مُتَضمِّنان لجميع صفات الكمال، فالعلمُ يَتضمَّن الحياة ولوازم كمالها من القيوميَّة[7] والقدرةِ والبقاء والسَّمْعِ والبصر، وسائر الصفاتِ التي يستلزمها العلمُ التَّامُّ.

---

(١) الآية ٧١ من سورة هود.

(٢) الآية ٢٩ من سورة الذاريات.

(٣) قال ابن منظور في لسان العرب (١/٧٥٤): «ونَدَبَ الميت أي بكى عليه، وعَدَّدَ محاسنه يندبه نَدباً، والاسم النُدبة».

(٤) إشارة لقوله تعالى في سورة هود: ﴿قالت يا وَيلتَى أأَلِدُ وأنا عجوزٌ وهذا بعلي شيخاً إنَّ هذا لشيءٌ عجيب﴾ الآية ٧٢ من سورة هود.

(٥) الآية ٣٠ من سورة الذاريات.

(٦) الآية ٣٠ من سورة الذاريات.

(٧) جاء في شرح العقيدة الطحاوية ص١٢٢: «... وأمَّا القيُّوم فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته، فإنَّه القائم بنفسه، فلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه، المقيم لغيره، فلا قيام لغيره إلا بإقامته».

والحكمةُ تتضمَّنُ كَمالَ الإرادةِ والعدلِ والرحمة والإحسان والجودِ والبرِّ، ووضع الأشياء في مواضعها على أَحسَنِ وجوهها، ويتضمَّن إرسال الرسل وإثبات الثواب والعقاب. كُلُّ هذا العلم من اسمه الحكيم كما هي طريقة القرآن في الاستدلال على هذه المطالب العظيمة بصفة الحكمة: والإنكار على من يزعم أنه خَلَقَ الخَلْقَ عَبَثاً وسُدَىً وباطلاً، فحينئذٍ صفة حكمته تتضمن الشرع والقدر والثواب والعقاب، ولهذا كان أصحُّ القولين أنَّ المعادَ يُعْلَمُ بالعقل، وأنَّ السمع وَرَدَ بتفصيل ما يدلُّ العقلُ على إثباته.

ومن تأمَّل طريقة القرآن وجَدَها دالَّة على ذلك، وأنه سبحانه يضرب لهم الأمثال المعقولة التي تَدُلُّ على إمكانِ المعادِ تارةً ووقوعهِ أُخرى، فيذكر أدلة القدرة الدالة على إمكانِ المعاد وأدلة الحكمة المستلزمة لوقوعه.

ومن تأمَّل أدلة المعادِ في القرآن وجَدَها كَذَلِكَ مُغْنِيةً بحمدِ اللهِ عن غيرها، كافِيةً شَافيةً موصلةً إلى المطلوب بسرعة، متضمنة للجواب عن الشُّبه العارضة لكثير من الناس. وإنْ ساعدَ التوفيق كتبت في ذلك سِفراً[1] كبيراً، لما رأيت في الأدلة التي أُرشد إليها القرآن من الشفاء والهُدى وسرعةِ الإنصافِ، وحُسنِ البيانِ، والتنبيه على مواضع الشُّبَه والجوابِ عنها بما يَنْثَلِجُ له الصَّدرُ؛ ويكثُرُ معه اليقينُ، بخلاف غيره من الأدلة، فإنَّها على العكس من ذلك وليس هذا موضع التفصيل.

والمقصود أنَّ صدورَ الخلقِ والأمر عنْ علمِ الربِّ وحكمته. واختصَّت هذه القصة بذكر هذين الاسمين لاقتضائهما لتعجب النفوس من تولد مولود بين أبوين لا يولد لمثلهما عادة، وخفاء العلم بسبب هذا الإيلاد، وكون الحكمة اقتضت جريانَ هذه الولادة على غير العادة المعروفة. فذكر في الآية اسم العلم والحكمة المتضمن لعلمه سُبحانه بسبب هذا الخلق وغايته وحكمته في وضعه موضعه من غير إخلالٍ بموجب الحكمة.

---

(١) السِفْر: الكتاب. (مختار الصحاح ص٣٠٠).

ثُمَّ ذكر سبحانه وتعالى قصة الملائكة في إرسالهم لهلاك قوم لوط، وإرسال الحجارة المُسَوَّمة[1] عليهم. وفي هذا ما يتضمَّن تصديق رسله وإهلاك المكذبين لهم، والدلالة على المعاد والثواب والعقاب لوقوعه عياناً في هذا العالم، وهذا من أعظم الأدلة الدالَّة على صدق رُسُله لصحة ما أُخبروا به عن ربهم.

ثم قال تعالى: **﴿فأَخْرَجنا مَنْ كَانَ فيها من المؤمنين. فما وجدنا فيها غير بيتٍ من المسلمين﴾**[2] فَفَرَّق بين الإسلام والإيمان هنا لسرٍّ اقتضاه الكلام.

فإنَّ الإخراج هنا عبارة عن النجاة، فهو إخراج نجاة من العذاب، ولا رَيبَ أنَّ هذا مُخْتَصٌّ بالمؤمنين المتَّبِعين للرسل ظاهراً وباطناً.

وقوله: **﴿فما وجدنا فيها غيرَ بيتٍ من المسلمين﴾** لما كان الموجودون من المخرجين أوقع اسم الإسلام عليهم لأنَّ امرأة لوط كانت من أهل هذا البيت وهي مسلمة في الظاهر، فكانت في البيت بين الموجودين لا في القوم الناجين، وقد أخبَرَ سُبحانه عن خيانة امرأة لوط، وخيانتها أنها كانت تدلُّ قومَها على أضيافه وقلبها معهم، وليست خيانة فاحشة، فكانت من أهل البيت المسلمين ظاهراً، وليست من المؤمنين الناجين.

ومن وضع دلالة القرآن وألفاظه مواضعها تَبَيَّن له من أسراره وحكمه ما يبهر العقول، ويعلم أنه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد.

وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور وهو: أنَّ الإسلام أعم من الإيمان فكيف استثناء الأعم من الأخص، وقاعدة الاستثناء تقتضي العكس وتبين أن المسلمين المستثنين مما وقع عليه فعل الوجود، والمؤمنين غير مستثنين منه، بل هم المخرجون الناجون.

---

(١) المُسوَّمة: أي التي عليها أمثال الخواتيم. (مختار الصحاح ص٣٢٣).

(٢) الآيتان ٣٥-٣٦ من سورة الذاريات.

وقوله تعالى: ﴿وتركنا فيها آيةً للذين يخافُونَ العذابَ الأليم﴾[1] فيه دَليلٌ على أنَّ آياتِ اللهِ سبحانه وعجائبه التي فعلها في هذا العالم وأبقى آثارها دالة عليه وعلى صدق رسله، إنمـا ينتفعُ بها من يُؤمنُ بالمعاد ويَخشى عذابَ الله تعالى، كما قال الله تعالى في موضع آخر: ﴿إنَّ في ذَلِكَ لآيةً لِمنْ خافَ عذابَ الآخرة﴾[2].

وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخشى﴾[3] فإنَّ من لا يُؤمنُ بالآخرة غايته أن يقول: هؤلاء قومٌ أصابهم الدهرُ كما أصابَ غيرهم، ولا زالَ الدَّهرُ فيه الشقاوة والسعادة. وأمَّا من آمن بالآخرة وأشفق منها فهو الذي ينتفعُ بالآيات والمواعظ.

والمقصـود بهـذا إنما هو التنبيهُ والتمثيلُ على تفاوتِ الأفهامِ في معرفة القرآن واستنباط أسراره وآثار كنوزه ويعتبر بهذا غيره، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

---

(١) الآية ٣٧ من سورة الذاريات.

(٢) الآية ١٠٣ من سورة هود.

(٣) الآية ١٠ من سورة الأعلى.

فصل

الرفيق والطريق

والمقصود أنَّ القلب لما تحوَّل إلى هذا السفر طلب رفيقاً يأنسُ به في السفر، فلا يجد إلا معارضاً مناقضاً، أو لائماً بالتأنيب مصرحاً، أو فارغاً من هذه الحركة معرضاً، وليت كل ما ترى هكذا، فلقد أحسن إليك من خلاك وطريقك ولم يطرح شره عليك، كما قال القائل[1]:

إنَّا لَفِي زَمنٍ تركُ القبيحِ بِهِ
مِنْ أَكْثَرِ الناس إحسَانٌ وإجْمَالُ[2]

فإذا كان هذا المعروف من الناس، فالمطلوب في هذا الزمان المعاونة على هذا السفر بالإعراض وترك الأئمة والاعتراض، إلا ما عسى أن يقع نادراً فيكون غنيمة باردة لا قيمة لها.

ولا ينبغي أن لا يتوقف العبد في سيره على هذه الغنيمة بل يسير ولو وحيداً غريباً، فانفرادُ العبدِ في طريق طلبه دَليلٌ على صدق المحبة.

---

(1) هو أبو الطيب أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الجُعْفي الكندي الكوفي المعروف بالمتنبي الشاعر المشهور، الحكيم، أحد مفاخر الأدب العربي. له الأمثال السائرة والحكم البالغة والمعاني المبتكرة، ولد في الكوفة سنة ٣٠٣هـ وتوفي سنة ٣٥٤هـ. (وفيات الأعيان ١/١٢٠، الأعلام ١/١١٥).

(2) انظر البيت في ديوان أبي الطيب المتنبي ٣/٤٠٧، ومعنى البيت: «أن من يتجنب معك القبح ولا يعاملك به في هذا الزمان فقد أحسن إليك وفعل جميلاً، لكثرة من يعاملك بالقبيح» انظر شرح البرقوقي لديوان المتنبي ٣/٤٠٧.

ومَنْ نَظَرَ في هذه الكلمات التي تضمنتها هذه الورقات، عَلِمَ أنها من أهم ما يحصل به التعاون على البر والتقوى، وسفر الهجرة إلى الله ورسوله، وهو الذي قصد مُسطِّرها بكتابتها، جعلها هديته المعجلة السابقة إلى أصحابه ورفقائه في طلب العلم. وشَهِدَ اللهُ وكفى بالله شهيداً، ولو توافي أحداً منهم لقابلها بالقبول ولبادر إلى تفهمها وعدها من أفضل ما أهدى صاحب إلى صاحبه، فإنَّ غيرَ هذا من جريانات الركب الخيرية، وإن تطلَّعت النفوسُ إليها ففائدتها قليلة وهي في غاية الرخص لكثرة جالبها، وإنما الهديةُ النافعةُ كلمةٌ يُهديها الرَّجُلُ إلى أخيه المسلم.

الموتى الأحياء، والأحياء الموتى:

ومن أراد هذا السفر فعليه بمرافقة الأموات الذين هم في العالم أحياء، فإنه يبلغ بمرافقتهم إلى مقصده، وليحذر من مرافقة الأحياء الذين هم في الناس أموات، فإنهم يقطعون عليه طريقهُ فليس لهذا السالك أنفع من تلك المرافقة، وأوفق له من هذه المفارقة، فقد قال بعض السلف: «شتان بين أقوامٍ موتى تحيا القلوب بذكرهم، وبين أقوام أحياء تموت القلوب بمخالطتهم». فما على العبدِ أضرُّ من عشائرِهِ وأبناءِ جنسهِ، فَنَظَرُهُ قاصرٌ وهمَّتُهُ واقفةٌ عندَ التَّشبُّه بهم، ومباهاتِهم والسلوكَ أَيْن سلكوا، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضبٍّ لأَحَبَّ أنْ يدخله معهم[1].

فمتى صرَفَ همَّتَه عن صُحبتِهم إلى صحبة من أشباحهم مفقودة، ومحاسنهم وآثارهم الجميلة في العالم موجودة، استحْدَثَ بذلك همة أخرى وعملاً آخر، وصار بين الناس غريباً، وإن كانَ فيهم مشهوراً ونسيباً، ولكنه غريب محبوب، يرى ما الناس فيه ولا يرون ما هو فيه؛ يقيم لهم المعاذير ما استطاع

(١) هذا اقتباس من قول الرسول ﷺ: «لتتبعنَّ سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع. حتى لو دخلوا في جُحر ضبٍّ لاتبعتموهم» رواه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبي «لتتبعن سنن سن كان قبلكم» ١٣/٣٠٠، ومسلم في كتاب العلم باب اتباع سنن اليهود والنصارى ٤/٢٠٥٤، وابن ماجة ٢/١٣٢٢، وأحمد ٢/٣٢٧.

ويحصنهم بجهده وطاقته، ساتراً فيهم بعينين: عين ناظرة إلى الأمر والنهي. بها يأمرهم وينهاهم ويواليهم ويعاديهم، ويؤدي لهم الحقوق ويستوفيها عليهم. وعين ناظرة إلى القضاء والقدر، بها يرحمهم ويدعو لهم ويستغفر لهم، ويلتمس وجوه المعاذير فيما لا يخلُّ بأمرٍ ولا يعود بنقض شرع، وقد وسعهم بسطته ورحمته ولينه ومعذرته، وقفاً عند قوله تعالى: ﴿خُذِ العفو وأْمُرْ بالعُرْف[1] وأَعْرِض عن الجاهلين﴾[2]. متدبراً لما تضمنته هذه الآية من حُسْنِ المعاشرة مع الخلق وأداء حق الله فيهم والسلامة من شرهم. فلو أَخَذَ الناس كلهم بهذه الآية لكفتهم وشفتهم، فإن العفو ما عفى من أخلاقهم وسمحت به طبائعهم ووسعهم بذله من أموالهم وأخلاقهم.

فهذا ما منهم إليه، وأما ما يكون منه إليهم فأمرهم بالمعروف، وهو ما تشهد به العقول وتعرف حسنه، وهو ما أمر الله به. وأما ما يتقى به أذى جاهلهم فالإعراض عنه وترك الانتقام لنفسه والانتصار لها.

فأيُّ كمالٍ للعبد وراء هذا؟ وأيُّ معاشرة وسياسة لهذا العالم أحسن من هذه المعاشرة والسياسة؟ فلو فَكَّر الرَّجُلُ في كلِّ شرٍّ يلحقه من العالم ـ أعني الشر الحقيقي الذي لا يوجب له الرفعة والزُّلْفى[3] من الله ـ وَجَدَ سببه الإخلال بهذه الثلاث أو بعضها، وإلا فمع القيام بها فكلُّ ما يحصل له من الناس فهو خير وإن كان شراً في الظاهر، فإنَّه يتولد من الأمر بالمعروف ولا يتولد منه إلا خيراً وإن ورد في حالة شر وأذى كما قال الله تعالى: ﴿إنَّ الَّذين جاءوا بالإفكِ عُصبةٌ منكم لا تَحسبوه شراً لكم بَلْ هُوَ خيرٌ لكم﴾[4].

وقال تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿فَاعْفُ عَنْهُم واستغْفِر لهم وشاوِرهُم في الأَمر،

(١) العُرْف: المعروف من الإحسان. (المفردات في غريب القرآن ص٣٣٢).

(٢) الآية ١٩٩ من سورة الأعراف.

(٣) الزُّلفى: القُربة والمنزلة. (مختار الصحاح ص٢٧٣).

(٤) الآية ١١ من سورة النور.

فإذا عزَمْت فتوكَّل على الله﴾[1] وقد تضمَّنت هذه الكلمات مراعاة حقِّ الله وحقِّ الخلْقِ، فإنَّهم إمَّا أن يسيئوا في حقِّ الله أو في حقِّ رسولِه، فإنْ أساءوا في حقِّك فقابلْ ذلك بعفْوِكَ عنهُم، وإنْ أساءوا في حقي فاسألني أغفر لهم واستجلب قلوبهم، واستخرج ما عندهم من الرأي بمشاورتهم، فإنَّ ذلك أحرى في استجلاب طاعتهم وبذل النصيحة، فإذا عزمت فلا استشارة بعد ذلك، بل تَوَكَّلْ وامْضِ لما عزمتَ عليه من أمرك، فإنَّ الله يُحبُّ المتوكلين.

فهذا وأمثاله من الأخلاق التي أدَّب اللهُ بها رسوله وقال تعالى فيه: ﴿وإنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2]. قالت عائشة رضي الله عنها: «كان خُلُقُه القرآن»[3]. وهذا لا يتم إلا بثلاثة أشياء:

أحدها: أن يكون العودُ طيباً، فأمَّا إنْ كانت الطبيعة جافيةً غليظةً يابسةً عَسُرَ عليها مزاولةُ ذلك علماً وإرادة وعملاً، بخلافِ الطبيعةِ المنقادة اللينة السلسة القياد، فإنَّها مستعدة إنما تريد الحرث والبذر.

الثاني: أن تكون النفس قويةً غالبةً قاهرةً لدواعي البطالة والغي والهوى، فإنَّ هذه الأمور تنافي الكمال، فإن لم تقوَ النفسُ على قهرها وإلا لم تزل مغلوبة مقهورة.

الثالث: علم شاف بحقائق الأشياء وتنزيلها منازلها يميز بين الشحم والورم، والزجاجة والجوهرة.

فإذا اجتمعت فيه هذه الخصال الثلاث وساعد التوفيق فهو القسم الذي سبقت لهم من ربهم الحسنى، وتمت لهم العناية.

---

(١) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ٤ من سورة القلم.

(٣) رواه مسلم ضمن حديث طويل في كتاب صلاة المسافرين باب جامع صلاة الليل، وأحمد في مسنده ج٦ ص١٨٨.

والله سبحانه وتعالى أعلم. وصلى الله على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً أبداً إلى يوم الدين. والحمد لله رب العالمين.

* * *

تم الكتاب بحمد الله تعالى

الفهارس

١ - فهرس الآيات القرآنية

٢ ـ فهرس الأحاديث والآثار

٣ ـ فهرس المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم.

ـ ابن قيم الجوزية، لمحمد مسلم الغنيمي، طبعة المكتب الإسلامي.

ـ ابن قيم الجوزية ـ حياته وآثاره، لبكر بن عبد الله أبو زيد ـ طبعة دار الهلال ـ الرياض.

ـ الاستيعاب بهامش الإصابة للقرطبي، طبعة دار الكتاب العربي.

ـ الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني ـ طبعة دار الكتاب العربي.

ـ الأعلام، لخير الدين الزركلي ـ طبعة دار العلم للملايين.

ـ أعلام النساء، لعمر رضا كحالة ـ طبعة مؤسسة الرسالة.

ـ البداية والنهاية، لابن كثير ـ طبعة دار الكتب العلمية.

ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للشوكاني ـ طبعة دار المعرفة.

ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطي ـ طبعة دار الفكر.

ـ تفسير ابن كثير ـ طبعة مكتبة المنار ـ الزرقاء ـ الأردن.

ـ تفسير الطبري ـ طبعة دار الفكر.

ـ تفسير القرطبي ـ طبعة دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

ـ تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني ـ طبعة دار الرشيد.

ـ تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني ـ طبعة دار صادر.

ـ حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني ـ طبعة دار الكتاب العربي.

ـ خزانة الأدب، للبغدادي ـ تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ـ طبعة مكتبة الخانجي بمصر.

ـ الدرر الكامنة، لابن حجر العسقلاني ـ طبعة دار الكتب الحديثة.

ـــ ديوان امرىء القيس ـ طبعة دار الكتب العلمية .
ـــ ديوان جميل بثينة ـ طبعة دار مكتبة الحياة ـ بيروت .
ـــ ديوان الصبابة ، لأحمد بن حجلة ـ طبعة دار ومكتبة الهلال ـ بيروت .
ـــ ذيل العبر للحسيني ـ طبعة دار الكتب العلمية .
ـــ الذيل على طبقات الحنابلة، لابن رجب ـ طبعة دار المعرفة.
ـــ رجال الفكر والدعوة في الإسلام، للندوي ـ طبعة دار القلم ـ الكويت.
ـــ روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لابن قيم الجوزية ـ طبعة دار الكتب العلمية.
ـــ سنن ابن ماجه ـ تحقيق فؤاد عبد الباقي ـ طبعة المكتبة العلمية .
ـــ سنن أبي داود ـ تحقيق عزت الدعاس وعادل السيد ـ طبعة دار الحديث ـ بيروت .
ـــ سنن الترمذي ـ تحقيق أحمد شاكر ـ طبعة مكتبة مصطفى البابي الحلبي وشركاه .
ـــ سنن الدارمي ـ طبعة دار الكتب العلمية .
ـــ سنن النسائي ـ الطبعة الأولى المفهرسة ـ اعتناء عبد الفتاح أبو غدة .
ـــ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن عماد الحنبلي ـ طبعة دار الآفاق الجديدة .
ـــ شرح ديوان أبي تمام، لشاهين عطية ـ طبعة دار الكتب العلمية .
ـــ شرح ديوان المتنبي ، للبرقوقي ـ طبعة دار الكتاب العربي .
ـــ شرح شواهد المغني، للسيوطي ـ طبعة دار مكتبة الحياة ـ بيروت .
ـــ الشعر والشعراء، لابن قتيبة ـ طبعة دار إحياء العلوم .
ـــ صحيح مسلم ـ تحقيق محمد فؤاد على الباقي ـ طبعة دار الفكر.
ـــ طريق الهجرتين، لابن قيم الجوزية ـ طبعة دار الكتب العلمية .
ـــ العبر في خبر من عبر، للذهبي ـ طبعة دار الكتب العلمية .
ـــ فتح الباري شرح صحيح البخاري، للعسقلاني ـ طبعة دار المعرفة.
ـــ فوات الوفيات، لمحمد شاكر الكتبي ـ طبعة دار صادر.

ـ لسان العرب، لابن منظور ـ طبعة دار صادر.
ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي ـ طبعة دار الكتاب العربي.
ـ مختار الصحاح، للرازي ـ طبعة دار الكتب العلمية.
ـ مختصر سنن أبي داود، للحافظ المنذري ـ طبعة دار المعرفة.
ـ مختصر طبقات الحنابلة، لابن شطي ـ طبعة دار الكتاب العربي.
ـ مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية ـ طبعة دار الكتاب العربي.
ـ المسند، للإمام أحمد بن حنبل ـ طبعة دار صادر.
ـ معالم السنن للخطابي مع مختصر سنن أبي داود ـ طبعة دار الكتاب العربي.
ـ معجم البلدان، لياقوت الحموي ـ طبعة دار صادر.
ـ معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة ـ طبعة دار إحياء التراث العربي.
ـ المعجم الوسيط ـ طبعة دار إحياء التراث العربي.
ـ المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني ـ طبعة مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
ـ ملاك التأويل، لأحمد بن الزبير الغرناطي ـ طبعة دار النهضة العربية.
ـ الموطأ، للإمام مالك ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ طبعة دار إحياء التراث العربي.
ـ النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير ـ طبعة دار إحياء التراث العربي.
ـ هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون ـ لاسماعيل باشا البغدادي ـ طبعة دار الفكر.
ـ وفيات الأعيان، لابن خلكان ـ طبعة دار الثقافة ـ بيروت.

انتهت المراجع

٤ ـ فهرس الموضوعات

رقم الايداع لدى دائرة المكتبات والوثائق الوطنية (٥٣٨/ ٩/ ١٩٨٩).

٢١٦,٨٣٩٣
قيم
ابن قيم الجوزية، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر ٦٩١-٧٥١هـ.
الرسالة التبوكية/ أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، تحقيق حماد سلامة. ـ الزرقاء: مكتبة المنار، ١٩٨٩.
(٨٠) ص
ر. أ (٥٨٣/ ٩/ ١٩٨٩)
١ ـ الاخلاق الاسلامية أ ـ حماد سلامة، ب ـ العنوان.

(تمت الفهرسة بمعرفة دائرة المكتبات والوثائق الوطنية)